بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــــد

حين يتصدى الباحث لاكتشاف عنصر من عناصر الأدب في الكتاب السماوي العظيم ، أو جلاء سمة من سمات العلم ، أو ابراز خصيصة من خصائص الحياة ، يجد نفسه أمام غاية بارزة واضحة ، هي تقديم الدليل وراء الدليل لعظمة الله ووجوده وقدرته . ثم يجد كل شيء بعد هذا انما يتخذ سبيلا للوصول الى الغاية العليا ، ويجده أيضا ظاهرة تكمن وراءها قوة الاله ، وتتجلى فيها عظمته ، وتتضح منها قدرته .

ولعل هذا قريب من المنطق ، لأن القرآن ماجاء إلا لينقل الناس من ظلام الى نور ، ومن ضلال الى هدى . ومن شر الطغيان والفساد الى خير العدالة والصلاح ، فلا غرابة أن يكون محوره ديني الغرض ، ثم لا يستعين بالموضوعات الأخرى إلا لتكون أطرا براقة أو متجهة بحسب الصورة التي تحملها ، أو المشهد الذي تحيط به .

ومن هنا كان على الباحث الذي ينقب في القرآن الكريم ليخرج بفكرة عن موضوع من موضوعات الأدب أو العلم بصنوفه كافة ، ألا ينسى أن موضوعه هذا انما هو جانبي في القرآن ، ووسيلة تسلك لاغاية تقصد .

ولهذا لم يتناول القرآن صور الطبيعة الأدبية الا من هذا الطرف الجانبي ، فتراها أحيانا كاملة شاملة ، فيها الصغير الذي لايكاد يؤبه له ، والكبير الذي تملاه العين ، ويستهوي النفس وتراها أحيانا أجزاء مفرقة ، فلا تقف منها إلا على سماء تنفطر ، أو أرض تميد ، أو جبل ينسف ، أو بحر يثور ، أو نجم يهوى ، وتراها أحيانا كالحة جرداء ثم لاتلبث أن تعود زاهرة ذات بهجة وحية ذات نضارة .

هذه هي الملامح التي لاحت لي حين بدأت أبحث عن أدب الطبيعة في القرآن ، وحين

اخترت بعد تردد طويل هذا الموضوع ليكون رسالتي في نيل شهادة "المجاز في الأدب العربي" لأنني كنت قد اخترت ثلاثة موضوعات عالجتها كلها معالجة سريعة أوّلها "طه حسين وخصومه في الشعر الجاهلي" وقد بقيت فيه ما يقرب من أربعة أشهر ، بين جمع مصادره ومراجعه ، ثم كتابته على شكل ملاحظات حول ماكتبه طه حسين وماكتبه النقاد الكثيرون في الرد عليه ، وتشاء الأقدار أن أقدم البحث لأستاذنا الفاضل الدكتور صبحي الصالح ، فرأى ان ألقيه على طلاب كلية الآداب في عدة محاضرات ، غير أني كنت أتململ وأسوف ، الى أن ادركتنا نهاية العام ، فوصلت الى ماأردت . ولكن فكرة واحدة ظلت عالقة في ذهني ، هي التصميم على توسعة الموضوع وجعله الرسالة الجامعية لنيل الاجازة في الآداب .

ثم كانت سنة ، افقمت ببحث آخر لا يقل خطرا عن السابق له ، وكان الأستاذ الكريم عبد الهادي هاشم سبب بحثي إياه ، فقد كنا ندرسه أنا ونفر قليل من طلاب المعهد العالي للمعلمين مشكلات النحو العربي وصعوباته الكثيرة ، وصعوبات تدريسه وتفهيم الطلاب إياه ، فرأى أن اقدم محاضرة موجزة عن النظريات التي قدمها العلماء في تيسير النحو ، فأتفرغ لها ، وأضطر الى قراءة عشرات الكتب حول هذا الموضوع ، بادئا بالثائر الأول ابن مضاء القرطبي في كتابه "الرد على النحاة" ومنتهيا بثائر هذا العصر الأستاذ ابراهيم مصطفى في كتابه ((إحياء النحو)) .

وماكدت ألقيه على طلاب كلية التربية ، حتى بدا لي أن أقدمه الى الأستاذ الجليل سعيد الأفغاني ، وكان من جراء ذلك القاؤه مرة ثانية على طلاب ((علوم اللغة العربية)) في كلية الآداب ، بعد تهذيب فيه واضافات ، ثم طوى ولكن فكرة أخرى لم تطو ، هي أنه أصبح ثاني موضوعين أرشحهما لرسالة الاجازة .

وأخيرا ذرّ قرن موضوع ثالث على غير إرادة مني ، فاذا به يستأثر بشعوري ، ويستحوذ على قلبي ، فأجدني مندفعا في كتابته بلا تريث ولا تمهل ، واذا بي أنسى موضوعيّ السابقين ، وأشرع به ، ليكون الرسالة المطلوبة .

ولئن كانت الدوافع الى كتابة الموضوعين السابقين أدبية بحتة ، لقد كانت دوافعي هنا عامة متنوعة ، عمل الأدب فيها لا يخيب ولا يخمد ، وان كان بجانبه أثر ديني فطري ، لا يقل قيمة عن نظيره

الأدبي ، الى جانب دوافع ثانية قد تكون اجتماعية ، تنقلها الي بيئة عشت فيها ، وأسـرة محافظة ورثت منها معظم خصائصها .

والله المستعان

((الطبيعـــة والأدب))

أثر الطبيعة في الأدب واضح بارز ، فهي التي تملأ نفس الأديب بالالهام الذى يضمـــر جوانحه ، ثم يجرى على لســـانه ، شـعرا حافلا" بالحياة ، أو نثرا مليئا بالعاطفة .

ولا يقتصر أثرها على الأديب وحده ، وانما هي ذات أصابع نورانية ، تشع في نفس الراعي القائم في أحضانها ، على حافة الغدران ، أو في ســـفوح الجبال ، أو في المراعي الخضر ، فاذا هـــو سعيد في شقاء ، هنيء في بؤس ، يرسل الأناشيد الحلوة ، لتعبر عن سعادته وهنائه . وتشـــع في قلب الراحل على جمله أو في سيارته ، فاذا الهموم تنسى ، واذا المشقات تخيب ، واذا فيـــض من الائتلاق يغمر كيانه ، ويملأ جوه ، واذا بالترنيمات العذاب تصدر عن نفسه ، واذا الحياة كلهـا وضيئة الجوانب لماعـة الآفاق .

فلا غرو اذن أن يكون تأثيرها في أولئك الأناسي المتميزين من سائر البشر . بحسهم المرهـف وشعورهم الصادق ... أولئك الشـعراء الذين يملأون الدنيا أهازيج واذا فرحوا ، وتجهما اذ ا غضبوا ، وحزنا اذا فجعوا ، لاغـرو أن يكون تأثيرها في هؤلاء اكثر من سواهم ، ولا غـرو أن نرى لهـا عند بعضهم صورا براقـة تنبض بالحياة ، وتختلج بالعـاطفة ، وتتحرك بالدقة وصدق الأصالـــة والامتثال .

ومن هنا كان الشعر بأجناسه كافة يحفل بالطبيعة ، حتى إننا نجد في كل أدب مـــن آدا ب العالم رصيدا ضخما يعنى بها ، رصيدا حقيقا بأن يؤخذ بالبحث ، ويكشف عنـه الستار .

ولكن هذا الأثـر لم يكن على اتساق واحد في العصور الأدبية كلها ، كما لم يكن ذا طابع عنـد الشعراء كلهم لقد بدأ هذا التاريخ للتأثير الطبيعي منذ العصور اليونانية ، فهذا هو أرسطـــو يرسل حكما وآراء حول تقليد المفتن للطبيعة ، واذا قلنا ((المفتن)) فانما يعني ذلك أن الأمر لا يقف عند حدود الأدب بل يدخل فيه الرسم والنحت والموسيقى ، وكل ما يمكن ان تجمعه كلمة "الافتنـان"

وكان فيلسوف اليونان بصورة عامة يفرض على الشاعر ان يحاكي الطبيعة محاكاة غير محكمة ، فعليه أن يضفي عليها من نفسه أمورا تجعل منها ماقبح ، وتحكم منها ما انطرب ، يفرض عليه ان يتخيل الى جانب الطبيعة الواقعية طبيعة خيالية ، نائية عن السذاجة ، مرتفعة فوق الواقع ، طبيعة مصانعة لا وجود لها الا في نفسية الشاعر ، او في نفسية المفتن بصورة عامة .

ولبثت نظرية المحاكاة هذه التي ابتدعها ارسطو دستورا سار عليها أدباء أوربا مدة طويلة حتى اذا كان القرن الثامن عشر ، وبدأت ثورات الشعوب ضد حكامها ، بعد ان قامت ثورات فكريه استنها الفيلسوف الالماني ((ديكارت)) بنظريته ((الشك المنهجي)) ، وهب فيلسوف فرنسا ((جان جاك روسو)) يدعو الى الرجوع الى الطبيعة والفطرة ... هنا رأى الشعراء أن بمكنتهم ان يثوروا على ماتوارثه سابقوهم من أفكار اليونان . وانهم قادرون على ان يجدوا في الطبيعة أما حنونا يحيشون مع ((روسو)) في أحضانها ، يهيمون بها كما يهيم المحب بحبيبه ، ويولعون كما يولع الولد بأمه ، فلم تعد عندهم أداة للمحاكاة ، كما كان يصنع سابقوهم ممن تابع اليونان في فلسفتهم وآدابهم .

وبدأنا هنا نجد اصطلاحات جديدة للشعر والادب ، فقد سمي هؤلاء المجددون ((بالرومانتيكيين)) وسمي القدماء المقلدون ((بالكلاسيكيين)) . كما عدنا نجد شعراء ألهمتهم الطبيعة غرر قصائدهم ، وأعذب أغانيهم ،

لم تعد الطبيعة اذا عند هؤلاء أداة محاكاة ، وانما عادت جزءا من حياتهم ، ونبضة من قلبهم ، ووثبة من عاطفتهم ، عادت حضنا يجدون فيه لذة ، ويتعشقون فيه الخناء ، ويلذون فيه العيش ، بينما راح التقليد على شعر الكلاسيكيين فخدوا يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم ، ويصفون مالا يشعرون ازاءه ، بحب أو عشق .

ولعل ظهور هذا الشعر الذي يحبد الطبيعة ، لم يطلع على العالم بهذه السمة البارزة فيه ، من تفاني الشاعر في المناظر أمامه ، حين يرى نهرا يجري أو جبلا يشمخ ، أو روضة تتمايل فيها الاغصان والازهار ، الا بعد ان طلع "روسو" على العالم بنظريته المعروفه في الرجوع الى

الطبيعة ، والصيرفي أحضانها الخصبة الرحيبة ٠

ومن هنا يصح لنا أن نقول ان شعر الطبيعة الذى نعرفه عند الرومانتيكيين الفرنسيين ، ومقلديهم من شعراء العربية المحدثين ، انما يرجع في أصله الى جذور فلسفية رعاها ((روسو)) في العقد الاجتماعي ، ونمتها البيئات في فرنسا وانكلترا ، وسقاها التفاعل الاجتماعي في شعوب اوربا التي شارت على التقليد واتباع فلاسفة اليونان واللاتين ٠

وهنا ينبغي أن نتساءل كيف سار شعر الطبيعة في ادبنا العربي ؟ أكان ذا أصالة وجودة أم اتبع الناحية الشكلية ووقف عند حدود التقليد والمحاكاة ؟ ٠

ان الناظر المتأمل في الشعر العربي ، يجد للطبيعة أشكالا وألوانا ، يجدها في الحيوان كما يجدها في الرياض والفيافي ٠٠ يجدها في الناقة السائرة في جوف الليل ، وفي الثور الوحشي الذى يلاحقه الصياد ، وفي أسراب القطا ، وفي هذه البوادى التي يشملها السكون ، ويلفها الهدوء ٠

وهكذا بدأ وصف الطبيعة في أدبنا العربي ٠ أصيلا يعبر عن احساس الشاعر وشعوره ، ولكنه لم يلبث أن وقف عند ذروته لينحدر من الجانب الاخر الى السفح ، ويصود تقليدا لايعبر عن عاطفة ، ولاينبي عن تأثر ٠٠

وربما رأينا شاعرا عظيما كابن الرومي يتأثر الطبيعة بجناتها الخضر ، وشمسها الغائبة وراء الافق ، ومناجاة أغصانها عند السحر ٠ وربما لمسنا في شعره هذا دفقات من الشعور ، وتدفقا من الوجدان الأصيل ، ولكن أمثال ابن الرومي قلائل ، لايستطيعون أن ينسونا شعراء التقليد الذين لم تعد أجزاء الطبيعة عندهم الا عناصر جافة يشبهون بشمسها الحسان ، وبرمانها النهود وبأغصانها القدود ، وبوردها الخدود ، ثم هي لاتحرك فيهم قلبا ، ولا تهز منهم نفسا ٠

شاعر آخر كابن خفاجة الاندلسي ، ينقلنا معه في وصف الطبيعة الى آفاق شاعرية فسيحة ، فنشعر معه حين نقف من وصفه الجبل بجلال الشيخوخة الحكيمة الخالدة ، كما نتهيب ذلك الحديث ((الجبلي)) الذى يلقي ظلالا من الوقار والهدوء علينا ، ويملأ نفوسنا بحكمته التي

خرج بها من الحيـاة .

وشعراء قلائل آخرون نلمس عندهم هذه اللمسات الحانية ، وتلك الظلال الفياضه بينمـا تبقى ازاء معظم الشعراء الآخرين ، أمام صناعة لفظية قوامها تشبيه واستعارة وكناية وتورية وماشئت ان تعد من هذه الفنون البلاغية التي ازدحمت في شعرنا في العصور المتأخرة ، فخرجت به من مجال الاحساس العميق بالأشياء ، الى مجال الزخرف والوشي ، وفقدان جوهر الشعر الحقيقي .

ثم نصل الى الشعر الحديث ، فنجد الطبيعة تحتل مكانا كبيرا منه . فهاهم أولاء شـعراء المهجر يتخذون من كلمة ((الغاب "١")) رمزا يعبرون فيه عن تعلقهم بالطبيعة ، وشعورهم نحـوها ، وحبهم لها ، فنعود نجد أصالة واضحة بعد أن غمرنا التقليد والمحاكاة .

ونحن لا يهمنا عصر من عصور الأدب العربي كما يهمنا عصر الجاهلية في بحثنا هذا لان القرآن الكريم قد نزل في ذلك الزمن وفي تلك البيئة التي ينبع الشعر فيها نبعا فيفيض على كل لسـان ، ويجيش في كل صدر ، ويلذ لكل اذن .

"١" اختلف الباحثون في شعر المهجر في تفسير رمز الغاب عند المهجريين فذهب الدكتـور شوقي ضيف في كتابه ((دراسات في الشعر العربي المعاصر)) الى أنه يعني وطنهم لبنان ، وذهب الدكتوران احسان عباس ومحمد نجم في كتابهما "الشعر العربي في المهجر" الى انه يعني الطبيعة التي يذكرها روسو نفسه ، ولعل الرأى الأخير هو الصـواب .

الطبيعة في الشعر الجاهلـــــــي

ولا بأس في أن نوازن بين صور الطبيعة التي جاءت في شعر الجاهلية وبين نظائرها في القرآن الكريم ، فلعلّ هذه الموازنة أن تكون خير دليل على اظهار الابتكار ، ووضوح التجديد في صـــور القرآن ، ثم هي من جانب آخر تبدي الملامح النفسية للشاعر ، فاذا نحن أمام انسان يفصح عن شعور بشري ، يقف حيال الطبيعة ، مكبرا لها ، مفتونا بها ، متأثرا بجلالها وقدرها ، بينما نقف مـــن وصف القرآن أمام وصف الهي ، يصف ما خلق ، ويفصح عما أبدع ، فلا نلمح للطبيعة القوة التي كنـــا نلمح ، ولا نلمس لها الجبروت الذي كنا نلمس ، بل نجدها حقيرة أمام عظمة الله ، صغيرة امـــام قدرته ، فالفارق اذن بين الطبيعتين هو الفارق بين الذاتين الواصفتين .

ثم هناك فارق آخـر هو أن الطبيعة في القرآن الكريم ذات قيمة في ذاتها لتدل على اللـــه ولهذا نجد السور الأولى منه يكثر فيها القسم بأجزائها ، فمن قسم بالضحى المشرق والليل الساجي الى قسم بالخيل تضبح عادية ، الى قسم بالرياح الذاريات ، الى آخـر بالغمام يبعث الحياة فـــي الأراضي الجدب .

وأول ما نلاحظه في صور الطبيعة عند الجاهليين ضيقها واقتصارها على طلل بال ـ أو ناقـــة وجناء ، أو منجرد هيكل ، أو صقر أسقع الخدين ، أو قطاة كحصاة القسم ، أو ثور ناشط الى غيـــر ما هنالك من وقوف عند الجزئيات ، وان كانت فيه أحيانا دقة متناهية ، لا تفوتها حركة ولا تضيع فيهـــا اشارة ، ولا تفقد منها ظاهرة ، أما الصور الكاملة التي نجدها في القرآن ، والتي تشمل الكون كلـــه وتجمع عناصره كلها في مشهد واحد ، فليس لها وجود في الشعر الجاهلي .

وقبل الخوض في بحث هذا الجانب عند الجاهليين ، ينبغي أن نبين عناصر الأصالة التـــي اذا توفرت في الشعر كان مثاليا تمام الخلق ، كامل التكوين .

ولعلّ أول هذه العناصر هو ان يكون ثمة انسجام بين الشاعر والطبيعة ، انسجام يتولد عنـــه

إلى الأستاذ
الفاضل الدكتور شكري
فيصل مع التحية.
حلب ١٥ ذي القعدة ١٣٧٨
الموافق ١٢/٥/٥٩
محمد خير

محمد خير الحلواني

أدب الطبيعة

في القرآن الكريم

رسالة جامعية أعدت لنيل شهادة « مجاز في الأدب العربي »

أشرف عليها

الدكتور صبحي الصالح

جامعة دمشق ـ كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م

حب عميق لها ، وشعور قوى بجمالها ، يمنحها من حياته ، ويهبها من نفسه ، ولا يراها دمية جامدة ولا حلية باهتة ... انسجام يشعر الشاعر ازاءه أنه من الطبيعة أمام غادة حسناء تساجله العطف وتجاذبه المودة ، لا أمام أجزاء تقدم له اركان التشبيه ، أو أصناف الاستعارات ، فنحن نقف من قول ابن المعتز في الهلال :

(انظر اليه كزورق من فضة قد اثقلته حمولة من عنبر) فلا نجد فيه الا جمودا أو ركودا ، فما قيمة هذا الزورق في نفس الشاعر ؟ وما هي الدوافع التي تركها في نفسه حتى صور لنا الهلال زورقا ، ولاح له لونه الفضي فجعله من فضة ؟ أين الانفعال والتموج النفسي الذى نراه عند الانسان الرومانتيكي حين يناجي هلالا" في كبد السماء ؟ بل أين هذا من قول ابن الرومي في الطبيعة :

هي في زينة البغي ولكن هي في عفة الحصان الرزان

نحن هنا أمام وصف يعبر" عن شغف الحي بالحي ، وشوق الصاحب الى الصاحب وتسمع من تشبيهه بها رنة طرب أو شجو ، لا تخرج الا" من نفس مفعمة بأصداء الطبيعة ، قد نفذت الى طويتها وشاركتها فما تتخيله (١) "

وناحية أخرى ينبغي أن ننبه اليها قبل الخوض في البحث هو أن وصف الطبيعة ذو ألوان وشعب فمنه ما يعني بالجانب الصامت منها ، فيصور غديرا عذبا ، ورياضا ضاحكة ، وسحابا دانيا ، ويعني قسم آخر بالجانب الحي من حيوان يرى ، وطائر مغرد ، وناقة ألوف .

وهذا كله ملموس في شعر الجاهلية ، فهناك الطبيعة الصامتة ، كما أن هناك الطبيعة الحية وكلها تتميز بالطابع البدوى ، من أثر البيئة التي عاش فيها الشعراء .

الطبيعة الصامتة :

وتغيب الناحية النفسية في وصف الرياض وأعشابها ، فلا نجد قلبا معلقا بجمال الطبيعة وانما نطالع وصفا خارجيا وتصويرا بعيدا عن خلجات النفس ، وهيجان الشعور ، ولعلهم لا يتذكرون الطبيعة الا" حين يريدون أن يشبهوا بها شيئا من جسد المحبوب (٢)

---

(١) العقاد . ابن الرومي حياته من شعره .

(٢) كتشبيه القدود بالغصون .

على غرار مايفعل الأعشى في معلقته حيث يقـول :

ماروضة من رياض الحزن معشبة / خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق / مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوما بأطيب منها نشر رائحة / ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل (١)

أو على غرار مايصنع عنترة حين يصف لنا رائحة فم عبلة في معلقته فيقول :

أو روضة أنفا تضمن بنتها / غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليها كل عين ثرة / فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا " وتسكابا فكل عشية / يجري عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح / غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه / فعل المكب على الزناد الأجذم (٢)

ربما وجدنا هنا حواس الشاعر الخارجية ، ذات وظيفة فعالة يدل على احساسها وجمالها ، وربما لمسنا عند عنترة شيئا من الحياء النابع عن البدوي الشهم اذا نحن تذكرنا أوصاف "امرئ القيس" الحسية لمفاتن جسد الأنثى وأوصاف من قلائه من الشعراء ، ولكن هذا لايهمنا في هذا المجال ، وانما يهمنا منه شيء يتعلق بموقف الشاعر الداخلي من الطبيعة ، فنحن نريد أثرا من حب الوصاف لها ، ونود أن نعثر على تشابيه تفيض منها الحياة ، ويهتز فيها الشعور على غرار مايفعل العقاد في وصفه للشتاء :

تسير الكواكب سير الحذر / ويرجف في الجو نور القمر
والشمس مشية مستكره / يساق الى منظر لا يسر
وللروض زهر به طائح / تقلب في الأرض كالمحتضر

---

(١) الحزن : المرتفع من الأرض ، الهضبة • الكوكب : النبات المستطيل • الشرق : الريا المتلئ ماء • مؤزر : لابس الازار • مكتهل : الذى بلغ وتم • • الأبيات من المعلقة •

(٢) الأنف : التام من كل شيء ، أو أوله • المعلم : العلامة ، وهو هنا بمعنى معروف • القرارة الموضع المطمئن من الأرض • السح : الصب • لم يتصرم : لم ينقطع • • الأبيات من المعلقة •

كل كلمة هنا تلقى ظلالا "نفسية ، تنبض بالحياة ، وتختلج بالشعور ، فنحن هنا أمام حياة لاأمام جماد ، أمام مستكره يساق الى منظر لا يسر ، وأمام محتضر يلقي بنظراته المعتمه على الحياة يودعها ، بعد أن لاحت له أشباح ماضيه ، وطيوف ذكرياته ، فطبيعة العقاد هنا موحية ، أما طبيعة عنترة والأعشى فخادم طيع لتبيان رائحة المحبوب .

على أن الشاعر الجاهلي ربما أجاد في وصف الطبيعة الصامتة هذه ، وجعلنا نشركه فيما يحس وفيما يرى ، وشغل حواسنا كلها من آذان وخيال وتصورات كل ذلك في متناول قريب ، ومأخذ دان ، فهذا هو الأعشى يقطع بلدة يلفها ظلام دامس ، وتغشاها وحشة مصمتة ، وتنتابها قفرة كئيبة ولا يسمع منها إلا" أصوات الجن تقطع سكونها الطويل ، وتخترق صمتها العميق :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة ... للجن بالليل في حافاتها زجل
لا يتنمى لها بالقيظ يركبها ... إلا" الذين لهم فيما أتوا مهل
جاوزتها بطليح جسرة سرح ... في مرفقيها إذا استعرضتها فتل (١)

المنظر هنا مخوف موحش ، وتتراءى فيه نفسية الشاعر الطموح ، الذى لا يبالي بما يطلع عليه من أشباح البادية ، ولا بما يترامى الى أذنيه من زجل الجن المرعب ، ولكن هذا المنظر مألوف في شعر الجاهليين ، فلعلهم قد فتنوا به ، فأكثروا من تصويره وذكره في شعرهم ، فهذا هو زهير ابن أبي سلمى يقول :

وأبيض عادى تلوح متونه ... على البيد كالسحل اليماني المبلج
له خلج تهوى به متتابعة ... الى منهل قاو جديب المعرج
مخوف كأن الطير في عرصاته ... على جيف الحسرى مجالس تنتجي

---

(١) مثل ظهر الترس : مقفرة ، أو صلبة يصعب قطعها . زجل : صوت . لا يتنمى : لا يسمو الى ركوبها . المهل : الجدة . الطليح : الناقة التي أعياها السير . الجسرة : الفخمة القوية السرح : السهلة السير . الفتل : الاندماج ، تباعد المرفقين عن الزور .. انظر المعلقة

زجرت عليه حرة أرحبيـــــــــة　　　وقد كان لون الليل مثل اليرنـــــدج (١)

ولن يغيب عن اذهاننا في هذا المعرض ما كان للديار من نصيب وافر عند شعراء الجاهليـــة فقد استنطقوها فلم تنطق ، وبكوا عليها فلت تجب ، ولم يتغيب عنها فتى" لاه عابث كامرئ القيس ، ولا شيخ هرم في الثمانين كزهير ٠٠٠ وقف فيها الشاب المندفع كطرفة بن العبد كما وقف فيها المسن المحـــروم نعمة البصر السليم كالأعشى بن قيس ، وهل هناك ما يسترعي انتباه البدوي أكثر من هذه الديار التـي فيها عاش ، وفيها نما ، وتلقى بذور العيش في احضانها الرحيبة ؟ ٠

إلاّ أن وصف الأطـلال عاد حديثا مكررا ، ووترا مألوفا ، وموسيقيـــى رتيبة تسمع من كـــــل شاعر ، ومن كل ناشد ، فلقد خرج امروء القيس بمعلقته فبكى الديار والدمن في قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنـــــزل　　　بسقط اللوى بين الدخول فحومـــل

ثم تبعه الشــــعراء من بعده ، فكانت قصيدته دستورا سار عليه من بعده ، ونورا قبس منــه الــرواد ٠

واذا كنا نجد بعض الفوارق النفسية في وصف الأطلال عند الشـــعراء ، فانما يرجع هــــذا الى تناول الوصف من الزاوية التي تلائم الشاعر ، وتوائم احساسه وشعوره ، أما الهيكل العام فلن يتبـدل ولن يختلف ، بل لعلنا نجد في كثير من الأحيان أوصافا تعاد ، والفاظا تتكرر ، كما نجد في هـــذه الأبيـات :

يقول امروء القيس في معلقته :

وقوفا بها صحبي علي مطيهـــــم　　　يقولون لاتهلك أسى وتجمـــــل

وجاء في معلقة طرفة بن العبد :

وقوفا بها صحبي علي مطيهـــــم　　　يقولون لاتهلك أسى وتجلـــــد

---

(١) الأبيض : صفة للطريق ٠ السحل : ثوب أبيض نقي ، المبلج : المبين ٠ الخلج : الطـــرق متلئبة : مستقيمة ٠ اليرندج : سواد يسود به الخف ٠ انظر ديوان زهير شرح ثعلب ٠

وشبه طرفة الأطلال الدارسة بآثار الوشم في ظاهر اليد فقال :

لخولة أطـــلال ببرقة ثهمـــــــد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليـــــد

فاستعار زهير التشبيه نفسه وذكره في معلقته فقال :

ديار لها بالرقمتين كأنهـــــــا مراجيع وشم في نواشر معصـــــم

ولعلّ هذا هو الذي دفع عنترة الى أن يقول :

هل غادر الشـعراء من متـــــردم أم هل عرفت الدار بعد توهـــــم

ودفع زهيرا الى أن يقول بصراحة :

ما أرانا نقول إلاّ معـــــــارا أو معادا من قولنا مكـــــــرورا

والحق أن وصف الأطـلال كان جديرا أن يحرك الشجون ، وأن يبعث في نفس الشاعر إحساس الحب وشعور التعلق بها ، والاندمان فيها ... جديرا أن يخلق جوا عاطفيا فيه حيويته وفيه روح ثم لا يقفنا فيه هذا النوع من كمود العاطفة ، وضعف التوثب الوجداني .

ولن نجحد كل أوصاف الدمن التي نطالعها في أشعار الجاهلية إذ نلمس في كثير مـــــن المقطوعات ما نروم وما ننتظر ، غير أن الصور لا تتغير والملامح لا تتبدل ، سواء في ذلك المطيل فـــي وصفها والموجز في تصويرها ، فهي عند امرئ القيس في ستة أبيات يحدد لنا مكانها ((بين الدخـــول فحومل)) ، ثم يجعلها مسرحا للظباء ويشبه بعرها بحب الفلفل ، ثم ينقطع وصفها ليصف لنا نفسه فيها فيجيد :

كأني غداة البين يوم تحملـــــوا لدى سمرات الحي ناقف حنظـــــل

وقوفا بها صحبي علي مطيهـــــم يقولون : لا تهلك أسى وتجمـــــل (١)

وان شفائي عبرة مهراقـــــــة فهل عند رسم دارس من معـــــول

أما طرفة فيكتفي في معلقته ببيتين عن الديار .

لخولة أطـــلال ببرقة ثهـــــــد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليـــــد

وقوفا بها صحبي على مطيهـــــم يقولون لا تهلك أسى وتجلـــــــد

أما زهير فيصفها في ستة أبيات على نحو أمرئ القيس وان كانت تختلف السمات عند هـــــا والطوابع ، إذ نجد آثار الشباب المحب عند الأمير ، بينما نجد طوابع الشيخوخة عند زهير :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلـــــم بحومانه الدراج فالمتثلـــــــم

ودار لها بالرقمتين كأنهـــــا مراجيع وشم في نواشـــر معصـــم

بها العين والآرام يمشين خلفـــه وأطلاؤها ينهضن من كل مجـــثم

وقفت بها من بعد عشرين حجـــة فلأيا عرفت الدار بعد توهـــــم

أثافي سفعا في معرس مرجـــــل ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلـــم

---

(١) الحنظل : نبات كالبطيخ يضرب به المثل بالمرارة . السمرات : شجرات لها شوك .

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم (١)

في هذه المقطوعات الثلاث تجتمع أوصاف الأطلال ، وتبين كل صورها فان نحن نظرنا في قصائد أخرى فلن نجد إلا هذه الأوصاف تعاد بألفاظ جديدة او غير جديدة ، فالبيت الثالث من قطعه زهير يلقي نظائره عند امرئ القيس مثلا" بقوله :

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

وعند لبيد بن ربيعه بقوله :

فعلا فروع الايهقان وأطفلت بالجلهتين ظباؤها ونعامها

والعين ساكنه على اطلائها عوذا تأجل بالفضاء بهامها (٢)

وعن المرقش الأكبر حيث يقول :

أمست خلاء بعد سكانها مقفرة إن بها من إرم

إلا من العين ترعى بها كالخار سيين مشوا في الكمم

وثمة نوع آخر من الطبيعة الصامتة هو وصفها كلها بسحابها وارضها كما نجد عند زهير حين وصف الركب ، وعند أوس بن حجر حين وصف السحاب والسمات لاتختلف هنا عن غيرها في الأوصاف الأخرى ، فبينما يقوى النظر الحسي ، وتشتد الملاحظه الخارجية ، تغيب الناحية النفسية والوجدانية

الطبيعة الحية :

وهنا نلمح عناصر فعالة في حياة البدوي ، عناصر هي من مقومات عيشه ، فهذه الناقة التي استحوذت على شعوره ، لن يضيع نصيبها من شعره وهذا الحصان الذي يخوض به المعارك سيكون له السهم الأوفى من قصيده ، ثم هذه الحيوانات والطيور البرية التي يشهدها صباح مساء كذلك تستأثر باعجابه فلن تغيب أطيافها ، ولن تزول لها الأشباح .

ولعل خصيصة التقليد التي يتميز بها الشعر الجاهلي متوفرة في هذا الجانب توفرا عظيما تطالعنا في وصف الناقة والثور الوحشي وأسراب القطا ، وأمثالها من الحيوانات البرية والأهلية .

ولن نستطيع أن نفرد للناقة بحثا خاصا . لأنها مرتبطة في شعر الجاهليين بحيوان آخر ارتباطا لاتحل عراه ، ولا تنفك روابطه ، هو الحمار الوحشي ، أو الثور الوحشي .

وعلى غرار ماشاهدنا في وصف الطلول ، يبدأ امرؤ القيس هذا المنحى ، فيتابعه الشعراء من بعده ، فاذا الصور واحدة عند زهير والنابغة ولبيد ، كلهم يشبه ناقته بالثور الوحشي أو الحمار الوحشي ، وكلهم يلقي عليه تقريبا الأوصاف نفسها ، وكلهم يصوره غيورا على أتنه (٣) ويلاحقه الصياد

(١) الدرآن والمتثلم : موضعان ، وكذلك " الرقمتين " . مراجيع وشم : ماظهر من آثار الوشم على ظاهر اليد . التواشير : عروق ظاهر الذراع . المعصم : موضع السوار من اليد . العين : جمع عيناء : وهي البقرة الوحشية . الآرام : الظباء . أطلاؤها : أولادها . اللأى : البطء . الأثافي الأحجار التي توضع تحت القدر . محرس المرجل : مكان القدر . السفع : السود . التؤى : حاجز

أو تطارده الكلاب ، ومعظمهم يقيم ثورقبينه وبين كلاب الصيد ، فينجو منها بروقيه الفتاكين (٤) .

بدأ ذلك امرؤ القيس بقصيدته البائية المشهورة ، ذات المطلع :

خليلي مرابي على أم جندب — نقضي لبانات الفؤاد المعذب

فتابعه زهير في قافيته إذ يقول :

كأن كوري وأنساعي وميثرتي — كسوتهن مشبا ناشطا لهقا
رعى بغيث لأوراك فناصفة — من الشتاء ، فلما شأوه نفقا
فسار منها على شيم يؤم بها — جنبي عماية فالركاء فالحمقا
فأدركته سماء بينها خضل — تروى الثرى وتسيل الصفصف القرقا
فبات محتصما من قرها لثقا — رش السحاب عليه الماء فاطرقا
يمري بأظلافه حتى إذا بلغت — يبس الكثيب تداعى الترب فانخرقا
مولي الريح روقيه وجبهته — حتى دنا مزم الجوزاء أو خفقا
فصبحته كلاب شدها خطف — وقانص لاترى في فعله خرقا
زرق العيون طواها حسن صنعته — مجوعات كما تطوى بها الخرقا
حتى اذا ظن قرن الشمس غالبة — وخاف من جانبيه النهز والرهقا
كر ففرج أولاها بنافذة — نجلاء تتبع روقيه دما دفقا (٥)

وهكذا يصبح تشبيه الناقة بهذه الدارة المطولة عن الثور الوحشي قاعدة تتبع ، نجدها عند لبيد (٦) وعند النابغة (٧) ولعل الواضح الجلي هنا أن الشاعر يشغل بوصف الثور الوحشي

يجعل حول الخباء يمنع من السيل . جذم الحوض : بقيته . لم يتثلم : لم يتهدم .. انظر المعلقة
(٢) الأيهقان : الواحدة أيهقانة ، وهو نوع من النبت ، يطول وهو عريض الورق ، احمر الزهر ، أو كما يقول التبريزي — الجرجير البرى . الجلهتان : جانبا الوادى . الحوذ : الحديثة النتاج تأجل : تصيد آجالا "جمع إجل وهو القطيع من بقر الوحش — البهام جمع بهمة : ولد الضأن وهو هنا ولد البقرة الوحشية . انظر المعلقة .
(٣) إذا شبهوها بالحمار الوحشي .
(٤) إذا شبهها بالثور الوحشي .
(٥) انظر ديوان زهير شرح ثعلب .
(٦) انظر معلقته .
(٧) في المعلقة .

أو الحمار الوحشي ، ثم يدع الناقة جانبا الى أن يختم الوصف بالتشبيه ، وربما ترك للسامع الحرية في آستشفاف النتيجة من قوله ، فلا يصح ولا يجد على غرار ما نلمس عند شاعر متأخر مثل بشار بن برد في بائيته الكبرى .

إلا أنها في النهاية صور ظريفة حلوة ، تنقلنا الى رحاب البادية ، فنرى ثور زهير ينتهب البيد وقد ألمت به الأمطار ، يسرى بأظلافه الكثيب ، ويولي الريح جبهته ، ثم تفاجئه كلاب الصيد الجائعة ، وتنشب المعركة بين الطرفين ، فينقض عليها طعنا بروقيه ، ويسيل دمها الذى تقدمه قربانا لصاحبها .

وكذلك لا تقل صورتا النابغة ولبيد طرافة وحلاوة عن صور زهير ، ولولا الرتابة والتقليد في الصور الثلاث لكان تأثيرها في نفوسنا من الروعة والاعجاب بمكان .. ولكن ما هي الظواهر النفسية التي يلم بها الشاعر من الحيوان ؟ أوقف منه موقفا سطحيا أم تعمق في الأمر ، فأطلعنا على ما يجول بخاطر هذه الحيوانات العجم أبكم ؟

الحق أن الشاعر الجاهلي استطاع أن يصور لنا خلجات النفس عند حمار الوحش ، كما صورها لنا عند الثور الوحشي ، فنحن نبصر في الأول حرصا على اناثه ، تأخذه الغيرة ، وتصور فيه حمية الذكر تجاه حماية الأنثى من الطوارئ والأذى ، ثم يبلغ التصور الداخلي ذروته حين نطلع على ما يدور في نفسية الثور والكلاب التي تطاعنه ، ثم نبصر الكلب ـ عند النابغة ـ يرى رفيقه قد أصيب واخترقه روق الثور ، فيعلم ان الموت منه قريب ، وأن دية دمه لن تدفع ، وأن القود لن يطالب به فيفر لائذا بقوائمه الرفيعة ، وعدوه السريع :

لما رأى واشق إقعاص صاحبه ... ولا سبيل الى عقل ولا قود
قالت له النفس إني لا أرى طمعا ... وأن مولاك لم يسلم ولم يصد (١)

سؤال آخر لا بد منه ، ولا محيد عنه ، هذه الناقة !! أين نفسيتها وأين نوازعها الداخلية ؟

هنا لن نظفر بجواب مقنع ، لأن الناقة لم تذهب في الغالب العام بوصف الشاعر ، وانما ينصرف عنها الى وصف حيوان آخر كما تقدم ، وربما وجدنا عند بعضهم لمحة نفسية في وصفها ، ولكنها أبدا من صميم الواقعية التي لا ترتفع فوق البيئة ، فهم كثيرا ما يشهدون ناقة أضاعت ولدها في ذلك المهمه البعيد ، حين يغدون بالقطيع اذا كان الصباح ، ويروحون به اذا كان المساء ، ولهذا تراهم يكثرون من تشبيه أنفسهم وقد ألم بهم الوجد ، وانتابتهم حميا الهيام ، بالناقة التي أضاعت ولدها فعادت ترجع الحنين :

فما وجدت كوجدى أم سقب ... أضلته فرجعت الحنينا (٢)

---

(١) انظر المعلقة . شرح التبريزى . (٢) الشعر لعمرو بن كلثوم في معلقته .

ولعلّ وصف طرفة لناقته لا يمكن أن يغفل في مثل هذا المجال ، فقد خالف فيها الشاعر النهج الذي رسمته التقاليد ، من تشبيهها بالثور الوحشي ، ووقف يفصل لنا جسدها عضوا عضوا كأنه الرسام الذي لا يحرك المنظر عرقا من قلبه ، ولا يهز وترا من حسه – بل رسمها رسما خارجيا فهي :

لها فخذان أكمل النحض فيهما ... كأنهما بابا منيف ممرد
لها مرفقان أفتلان كأنها ... تمر بسلمي دالج متشدد
وجمجمة مثل العلاة كأنما ... وعى الملتقى منها الى حرف مبرد
وعينان كالماويتين استكنتا ... بكهفي حجاجي صخرة قلت مورد

فنحن هنا أمام شكل خارجي للناقة ، لم يستطع الشاعر أن يشركنا في حسه لأنه ضعيف ولا بانفعاله لأنه فاتر ، وانما امتدت بنا أحقاب طويلة فاذا بذلك الهيكل الضيف للناقة ينتصب أمامنا من جديد لنشرك طرفه في النظر اليه ، وتملي تكوينه الخارجي .

هذه الأبيات تذكرنا بنظيرة لها عند زهير في داليته ، لأن الشيء يذكر بالشيء – كما يقول أبو العباس المبرد – وتكشف لنا نهجا من التقليد كان يقوم به الشاعر الجاهلي ، فلا يبالي أن يستعمل ألفاظ غيره ، أو طريقته في تناول الموصوف ، وكنت أود لو أذكرها هنا ، وأقابل كل بيت عند زهير بنده عند طرفه ، ولكني آثرت عدم ذلك ، لئلا تطول عجالة ، ويمتد تمهيد (١)

واذا تركنا الناقة قابلنا حيوان آخر لا يقل أهميتها في حياة الأعراب ، هو الحصان الذي يركبه في الروع :

وأركب في الروع خيفانة ... كسا وجهها سعف منتشر (٢)

كما يركبه للصيد :

وقد أروح أمام الحي مقتنصا ... قمرا مراتعها القيعان والنبك
وصاحبي وردة نهد مراكلها ... جرداء لا فحج فيها ولا صكك (٣)

واذا كانت الناقة قد ألقت حول الشاعر ظلالا "كثيفة" فجعلته يصف الثور الوحشي ذلك الوصف الرائع ، فان الحصان أقل إيحاء منها ، فقلما يلجأ الشاعر الى تشبيهه بدارة مطولة كما كان يفعل حين يصف الناقة ، فامرؤ القيس الذي يعد أبرز الشعراء في هذا المجال حتى عد أشعرهم ((إذا ركب)) فانه لا يصفه إلا وصفا خارجيا لا يتعمق نفسه ، ولا ينقل خواطره ، وحسبه أن يصوره لنا هيكلا" ضخما أملس الظهر ، تضطرب لسرعته الوحوش فتبدو كأنها مقيدة ، عظيم الألواح مكتنز اللحم ، خاصرتاه كخاصرتي غزال ، وساقاه كساقي نعامة ، وعدوه كعدو الذئب .

---

(١) راجع في ذلك ديوان زهير ، شرح أبي العباس ثعلب الكوفي .
(٢) لامرئ القيس . (٣) لزهير .

هذه الأوصاف لاتكاد تتغير عند أمير شعراء الجاهلية ، في قصائده الأخرى غير المعلقة ولا يزيد طرفة بن العبد عن هذه الأوصاف الحية شيئا ذا بال ، وان كان الدكتور سيد نوفل قد وجد فيها طرافة كما يقول (٤) فلقد وقف طرفة من الخيل في رائيته موقفا حسيا بحتا ، لم يصف ناحية نفسية ، ولاعني بالاحساس الداخلي . وكذلك صور الخيل عند زهير ، لايرتفع بها الى عالم النفس والشعور إلا حين يشبهها بالقطاة يطاردها صقر أسقع الخدين ، فيخمرنا بالجو النفسي عند الطيور لاعند الخيل ، وبهذا تتمثل في حصان واحد صفات الخيل المثلى في الجاهلية فحصان امرئ القيس لايختلف عن حصان طرفة ، ولاحصان زهير أو النابغة ، إنما السمات هي هي وكذلك الملامح والقسمات .

شاعر واحد يسمو في وصف حصانه سموا لم يصل اليه شاعر آخر في الجاهلية ، هو عنترة العبسي ، ومن أولى من ذلك الفارس الشفوق بتصوير خلجات الفؤاد عند حصانه الذى يشبهه لونا وشجاعة ؟ بل من هو الشاعر الذى يحب حصانه مثلما يحبه عنترة ، فيقيم بينه وبينه رابطة من الحب والتضحية ، إذ يلبسه شعورا نفسيا يحس بالجراح ، ويشكو الألم ، ويبثه مافي نفسه ، ويبادله العبرات بلغة صوتية ساذجة :

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم
مازلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلي بعبرة وتحمحم
لوكان يدري ماالمحاورة اشتكي ... ولكان لوعلم الكلام مكلمي

أبيات قليلة ولكنها بالغة الأهمية عظيمة المكانة ، فنحن لم نقف عند الظواهر من أوصاف الخيل التي اجترها الشعراء طويلا" ، وانما نحن أمام حيوان أبكم ، يشكو آلامه باكيا محمحما يتفجر في نفسه الاحساس ، وتنطق في صدره الخواطف ، وان خرس لسانه وعجز عن الافصاح فهناك لغة العيون التي تضج بالايحاء ، وتعج بالظلال ، ومن هنا كان حصان عنترة نسيج وحده يختلف عن أي حصان عند أي شاعر ..

ويبقى بعد هذين اللونين من الطبيعة الحية المتحركة ، وصف الحيوانات البرية ، وهو لون كثير المشاهد لدى شعراء الجاهلية ، إلا أن الذين أبدعوا في وصفها ، وعاشوا معها هم أولئك الذين كانوا يسمون بالصعاليك الحدائين ، كالشنفرى ، وتأبط شرا ، وعروة بن الورد والسليك بن السلكة ، وعمر بن البراق ، وأسيد بن جابر ، فقد كانت تقوم حياتهم على السلب والغارات في جوف الليل ، يخيفون بذلك النساء والأطفال ، ويعتمدون على عدو عرفوا به لايدانيه عدو الخيل ، غير أنهم حين يخافون اللحاق بهم يلوذون بالجبال العاصمة ، والأودية الوعرة السحيقة ويتغلغلون في الشعاب الضيقة التي يحسنون العدو فيها .

في كتابة : شعر الطبيعة في الأدب العربي . ص ٩٩ .

فالشنفرى الذى عاش في الصحراء فتاكا ، لاغرو أن نجد في نفسه جنوحا الى الاندماج في الحيوان حين يصفه ، وكنا نود لو يطيل في مثل هذا الوصف في لاميته المعروفة بلامية العرب (١) ، إلا أنه يكتفي بقوله :

ولي دونكم أهلون سيد عملس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لامستودع السر ذائع ... لديهم ولا الجاني بما جر يخذل
وكل أبي باسل غير أنني ... إذا عرضت أولى الطرائد أبسل (٢)

ثم يصف لنا قطيعا من الذئاب ، فلا يزيد على أن ينقلنا نقلة طبيعية الى جو المليء بهذا الضرب من المشاهد الصحراوية ، غير أن الطريف فيه أنه يشبه نفسه بالذئب الطاوى تارة وبرئيس النحل تارة أخرى ، فيقول :بالذئاب :

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ... أزل تهاداه التنائف أطحل
غدا طاويا يعارض الريح هافيا ... يخوت بأذناب الشعاب ويعسل
فلما لواه القوت من حيث أمه ... دعا فأجابته نظائر نحل
مهلهلة شيب الوجوه كأنها ... قداح بكفي ياسر يتقلقل (٣)

---

(١) شك بعض القدماء والمحدثين فيها ، وذكروا أن قائلها خلف الأحمر لا الشنفرى ، ولكن خلفا نحلها الصعلوك الجاهلي ، وحجتهم في ذلك أن اللغويين القدماء لم يستندوا اليها في مناظراتهم اللغوية والنحوية كما كانوا يستندون الى غيرها من الشعر الجاهلي ، بينما كان يعتقد بعضهم الآخر بصحتها وجاهليتها ، وله في ذلك حجج لاتقل عن حجج المنكرين أو الشاكين ، وقد عني بها بعضهم عناية كبرى ، فكثرت شروحها ، وأهمها شرح الزمخشري المطول المسمى ((أعجب العجب في شرح لامية العرب)) كما شرحها ابو العباس المبرد رأس نحاة البصرة في عصره ،، وأبو العباس ثعلب رأس نحاة الكوفة .

(٢) العملس : القوى على السير ، الأرقط : النمر ، الزهلول : الأملس ، العرفاء : ذات العرف وهو شعر العنق ، الجيأل : الضبع .

(٣) الأزل : صفة للذئب المحذوف ، وهو القليل اللحم عند الوركين ، التنائف : جمع تنوفة وهي الفلاة التي لاتنبت شيئا ، الأطحل : الذى لونه بين الغبرة والبياض ، يعارض الريح : يفعل مثلها جريا وسرعة ، يخوت : ينقض ، يعسل : يسرع باهتزاز ، لواه القوت : امتنع عليه نحل : ضعيفة لشدة الجوع . المهلهلة : خفيفة اللحم ، شيب الوجوه : مبيضة ، قداح جمع قدح وهو السهم قبل أن يراش الياسر : اللاعب بسهام الميسر يحركها بيديه . ونحن نرى في البيت الثاني خللا " في الوزن ، إذ يجعل ((مفاعيلن))" مفاعلن " وهذا كثير في الشعر الجاهلي ، كما في قول امرىء القيس في الشطر الثاني :

ألا ترى الى هذا الصعلوك الفتاك ، كيف يتخذ لنفسه أسرة من الحيوانات البرية الفتاكة مثله فيشاركها احساسها وعيشتها الوحشية ، بل ألا ترى اليه كيف يفضلها على قومه الذين عاش بينهم لأنهم :

هم الأهل لا مستودع السر ذائع ... لديهم ، ولا الجاني بما جرّ يخذل

× × ×

ويبقى من وصف الطبيعة عند الجاهليين صراع يقوم بين القطاة والصقر ، على غرار ما نشاهد في قصيدتين من قصائد زهير ، وسأذكر واحدة منهما ، ولن أطيل الوقوف عندها لعدم اتساع المجال :

جنونية كحصاة القسم مرتعها ... بالسيّ ما تنبت القفعاء والحسك

أهوى لها أسفع الخدين مطرق ... ريش القوادم لم تنصب له الشبك

لا شيء أسرع منها وهي طيبة ... نفسا بما سوف ينجيها وتتركك

دون السماء وفوق الأرض قدرهما ... عند الذنابي فلا فوت ولا درك

عند الذنابي لها صوت وأزملة ... يكاد يخطفها طورا وتهتلك

ثم استمرت الى الوادي فألجأها ... منه ، وقد طمع الأظفار والحنك

حتى استخاثت بماء لا رشاء له ... من الأباطح في حافاته البرك

فزل عنها وأوفى رأس مرقبة ... كمنصب المتردي رأسه النسك (١)

لقد استطاع زهير أن يصور لنا المعركة واضحة ، فوقفنا أمام مفاجآت كثيرة ، كان يقفز فيها قلبنا كما يقفز عندما نشهد شريطا سينمائيا يصور لنا ازدحام المهاوي أمام بطل الرواية ، فالقطاة التي لحقها الصقر هنا ، يكاد يدركها الموت ثم تنجو منه ، ولصلّ الشحن العاطفية تزدحم في بعض الالفاظ ، بل اننا لنرى أبياتا تامة كلها تمثل هذا اللون من الذعر والخوف :

عند الذنابي لها صوت وأزملة ... يكاد يخطفها طورا وتهتلك

× × ×

تلك هي الصور الطبيعية في الشعر الجاهلي ، عرضتها بايجاز شديد ووقفت منها موقفا خاصا ، فلم أعرض لصياغة هذه الصور ، وانما اهتممت بالناحية النفسية منها ، لأن لها علاقة بالصور

أصاح ترى برقا أريك وميضه ... كلمع اليدين في حبي مكلّل

(١) انظر ديوان زهير شرح ثعلب .

الطبيعية التي يعرضها قرآننا العظيم ، كما اهتممت بتبيان أثر البيئة بتصوير الطبيعة صامتة أوحية لأرى فيما بعد مقدار تأثيرها على القرآن الكريم .

ولقد قلت في مطلع هذا البحث : ان الملاحظة الأولى في طبيعة صور الجاهلية هي اهتمامهم بالناحية الجزئية ، أما القرآن الكريم فتشمل صوره الطبيعة كلها ، فتقيم لوحات تامة الأجزاء ، وافرة القسمات : ((إن في خلق السماوات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون [1])) ((الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذي مد الأرض ، وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشي الليل النهار ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون [2])) ((أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل في فلك يسبحون [3])) .

فأنت تجد عناصر الكون هنا ، معروضة في لوحة واحدة ، يقوم كل عنصر منها بالوظيفة التي هيئت لها ، ويوصف كل منها بالصفة التي يعرفها البشر .

أما الملاحظة الثانية في صور الطبيعة عند الجاهليين هي قلة التنويع والتكرار ، والسبب في هذا الايحتاج الى التعمق ليعرف ، ولا الى الغوص ليجلي ، فالبيئة البدوية ليست متنوعة لتثير مشاعر البشر ، ولا مختلفة الألوان لتستهوي الشاعر ، وانما تجري على وتيرة واحدة ، تتكرر فيها المشاهد ، وتعاد فيها الألوان ، ولهذا طلع شعراء الجاهلية على العالم ، وبضاعتهم من شعر الطبيعة تشبه بيئتهم من تكرار المعاني واعادة المشاهد .

فاذا رأينا بعد هذا أن أدب الطبيعة في القرآن الكريم يتحلل من آثار البيئة لأنه فوقها ، عرفنا أن هذا سبب من أسباب ألوهيته ، بينما نجد ثمة أثرا آخر ، ذا قوة وذا وضوح ، هو الدين الجديد والبرهان على وجود الخالق وقدرته .

---

(١) البقرة ١٦٥

(٢) الرعد ٢ — ٣ — ٤ .

عناصر الطبيعة كما يذكرها القرآن

نريد أن نرى هنا كل جزء من أجزاء الطبيعة ، كيف يصور ، وكيف يساق ، ولماذا يعرض في القرآن الكريم ، ولعلنا في هذا الاستقصاء نستطيع أن نقف عند كثير من الملاحظات الهامة في أدب الطبيعة القرآني ، وفي رسم خطوط دقيقة لصور كل عنصر طبيعي يمر في كتاب الله .

على أن تناول اجزاء الكون بشكل متفرق لا يعني تفكك عرضها في القرآن ، فقد ورد في معظم الأماكن مجتمعة بعضها مع بعض لتؤلف لوحات كبرى ، يتخذ فيها كل عنصر مكانه من الصورة دون أن يتغير شيء من سماته ، أو يضيع غرض سيق له .

وينبغي أن أشير كذلك الى أن بعض الباحثين تناولوا عناصر الطبيعة في القرآن تناولا "علميا" فراحوا يطبقون النظريات العلمية الحديثة على آيات الله ، جهلا" منهم وغفلة ، يدفعهم في هذا المجال سذاجة في الايمان ، وبساطة في التفكير ، ذلك أن نظريات العلم تتغير وتتبدل ، وينقض الحديث منها القديم وبصورة خاصة فيما يتعلق بأسرار الكون ، ومعالم الطبيعة ، فهل تحمل كتاب الله وزر النقص المعروف في كثير من نظريات العلماء لا لا شيء إلا" لتبرهن للناس بنوع من ضعف التفكير بأن القرآن ذكر بذور هذه النظريات قبل مخترعيها بألف عام ونيف .

ويتضح خطر هذه الافكار بما نعرف في تاريخ البشرية من مواقف رجال الدين المسيحي أمام نظرية كروية الأرض ، واستشهادهم بآيات من الانجيل تثبت عكسها تذهب اليه نظرية التكوير ، ثم خضوعهم فيما بعد للعلم ، بل ان كثيرين منهم راحوا يلتمسون آيات من كتابهم ليبرهنوا على صحة النظرية نفسها .

ونحن هنا لا تهمنا مثل هذه الآراء ، ولن نعرض لها ، إلا" اذا كانت تتضمن في تجليتها فكرة ، أو توضيح رأي ، أو تزيد في صورة العنصر الطبيعي شيئا جديدا .

الأرض والسماء :

أول ما يلاحظ في هذا العرض ، ويبرز حوله في القرآن الكريم ، هو طريقة خلق الأرض والسماء ، لانهما أكبر عناصر الطبيعة ، هذه تحتضن الجبال العاتية ، والبحار الزاخرة والسهول الخصيبة ، وتلك بساط لانهاية له ، تسبح دونه كواكب تنير ، ويسرح الخيال في فضاء لا يعرف له حدودا .

على أن الحديث عن خلقهما في القرآن الكريم . لا يقسم لبحث خاص ، ولا تنفرد له سورة معينة ، على غرار ما نجد في سفر التكوين من التوراة وانما نجد بعض الاشارات الخاطفة تعرفي آيات كريمة ، ثم تمضي تاركة وراءها عقلا" يتصور ، وقلبا يتأثر ، وانسانا يتخيل من خلال السجف

الكتاب قوة الله ، وعظمة آثاره : ((خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش[١]))
((ان ربكم الله ، الذى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد أذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تذكرون[٢]))

وهكذا نجد كيف تخلق الأرض ، وتتكون السماء ، بقدرة قادر ، ولكننا نبقى في جهل من التفصيلات الهامة ، وحسب القرآن الكريم أن يضع الخلق أمام الغرض والهدف ، ليقر لهم ماتشاء قدرة الخالق العظيم ، أما في التوراة — التي بين أيدينا — فاننا نجد تفصيلا" تاما وأجزاء منفردة من سفر التكوين لخلق الكون على طريق التحديد والتعيين فقد جاء فيه أنه ((في البدء خلق الله السماوات والأرض وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعا الله النور نهارا ، والظلمة دعاها ليلا" ، وكان مساء وكان صباح يوما واحدا وقال الله ليكن جلد في وسط المياه ، وليكن فاصلا" بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد ، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد ، وكان كذلك ، ودعا الله الجلد سماء وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا[٣])) .

وهكذا تمضي التوراة في سرد صنع عناصر الكون ، جاعلة لكل منها وقتا معينا ، فاذا خلقت الأرض والسماء ، وتكون قبلهما النور والظلام ، كان مساء ، وكان صباح ، وتكون منهما يوم أول ، ثم يوم ثان ، حتى اذا حل اليوم السادس انتهت الطبيعة كلها من التكوين ، فسبت الله عمله في اليوم السابع ، واستراح — كما تقول — وبارك هذا اليوم وقدسه ((لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا[٤])) .

ومن هنا نجد فوارق شاسعة بين طريقة القرآن الكريم في تصوير خلق السماوات والأرض وبين طريقة التوراة ، ونحن لا نستطيع أن نرد هذا الى آثار المجتمع الذى نزل فيه كل من الكتابين . لأن العرب كانوا أجهل من اليهود في الأمور الكونية ، ولعلهم كانوا في حاجة أكثر مساسا من اولئك الى تفهم حقيقة الكون ، والوقوف على الأمر الحق منها ، ولكن القرآن

---

(١) الفرقان ٦٠ .
(٢) يونس ٣ .
(٣) سفر التكوين : الأصحاح الأول .
(٤) = = : = الثاني .

اتبع في ذلك نهجا خاصا في تعليم العرب وسائر الأجناس، فكان يضع ذلك في سياق السوره أو في معرض الحديث، لتكون شاهدا عدلا" ، ومثالا" صادقا .

ولكن ، ماهي السما ؟؟ أهي ذلك الجو الفسيح ، والفضاء الرحيب ، الذى تسبح فيه الكواكب والأجرام ((وجعل في السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا [١])) ؟ أم هي ذلك الجسم الدخاني الكثيف ، الذى يعلو تلك البروج والمنارات ((ثم استوى الى السماء وهي دخان [٢])) ؟

أم هي هذه السيارات التي سمت وارتفعت ، فهي مثل هذه الأرض تركيبا وتكوينا ، كما يذكر الطبرسي [٣] ؟

والحق أن هذا اللفظ ((سماء)) يمكن أن يطلق على اشياء كثيرة ، فهو من ((سما يسمو)) أي ارتفع يرتفع ، ويمكن أن يراد منه في القرآن مسميات عدة ، بحسب مايتطلب جو السورة والآيات .

والوقوف عند مثل هذه الافكار في القرآن الكريم خير من التسرع في تقديم الرأى ، ولعل هؤلاء الذين أبدوا آراءهم هنا ، كانوا على جانب كبير من التسرع ، فليس الأمر نظرية علمية تحققها الماديات ، وتؤيدها براهين ملموسة ، وانما هي غيبيات ، يحكم فيها الحدس والظن وان الظن لايغني من الحق شيئا .

وعدم الخوض في هذا الجدل خير لنا ، واحفظ لأنفسنا في رسالة جامعية كهذه فلنقف اذا عند الحدود التي تظهر من القرآن الكريم وحده دون اللجوء الى مايقوله المتحمسون أو المتسرعون ، لأننا لانملك ادلة قاطعة ، أو براهين لاترد ، حتى نغمر أنفسنا في جو الجدل والمماراة .

فلنقف عند حدود القرآن وخطوطه الكبرى حول السماوات والأرض ، ففي ذلك جو أدبي حافل بالحياة الخيالية ، تحمل الينا من عالم مجهول صورا براقة لماعة ، فهاهم الجن أولاء يصفون لنا السماء وصفا رائعا ((وانا لمسنا السماء ، فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا [٤])) ثم

---

(١) الفرقان : ٦٢ .

(٢) فصلت : ١٢ .

(٣) في مجمع البيان .

(٤) الجن ٨ — ٩ .

إن الأرض والسماوات تحيط بالناس، فلا يستطيعون أن يفروا من الله مذنبين مجرمين ، إنسا كانوا أم جنا "يامعشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان [1] " .

وهذان العنصران أكثر مناظر الطبيعة ورودا للدلالة على مقدرة الله ووجوده ، وحمل الانسان على التأمل والتدبر لآيات الكون ، فهما انا تضفى عليهما سمات الانسانية الخاضعة لله ((ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : "ائتيا طوعا أو كرها " قالتا أتينا طائعين [2])) وأنا آخر تظهر عظمتهما بجانب الانسان الضعيف ، وتبدو صعوبة خلقهما إزاء خلقه ، ليجد أن من كون السماء هذا التكوين ، وصور الأرض هذه الصورة ، قادر في كل وقت على أن يفعل مايشاء)) لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون "[3] ، وآنا ثالثا يتعمق الناحية النفسية عند الانسان فيراه يكبر ماتبصر عينه من مخلوقات ، تضمهن الطبيعة في حضنها المديد ، ثم هو يلمح مايجول في خاطره من تعظيم هذه العناصر الكبيرة ، وذاك الملك العريض، فيقول له ((لله ملك السماوات والأرض ومافيهن [4])) ((ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض [5])) هو الذى خلق مافي الأرض جميعا [6])) .

ولا يبقي هذا المعنى على ماترى ، فهو يحور وتدخله عناصر جديدة فتجعله من دقته وموقعه شيئا آخر ، فانظر الى الله تعالى كيف يتخذه ردا "على اليهود الذين جعلوا ((عزيز)) ابن الله ، والمسيحيين الذين ألهوا المسيح وادعوا بنوته الالهية والمشركين من العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، فهو يرد على هؤلاء في كلمة موجزة ولكنها تفي عن كل إسهاب : ((وقالوا : اتخذ الله ولدا، سبحانه ، بل له مافي السماوات والأرض، كل له قانتون [7])) .

---

(١) الرحمن ٣٢
(٢) فصلت ١٢
(٣) المؤمن ٥٧
(٤) المائدة ١٢٤
(٥) البقرة ١٠٨
(٦) البقرة ٣٠
(٧) البقرة ١١٦

وبهذا يضيع زعم هؤلاء لأن الله وحده ((لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد)) صورة أخرى يدخل فيها هذا التعبير، فنحن نجد في سورة النساء (١) ((يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ، فآمنوا خيرا لكم وان تكفروا فان لله ما في السموات والأرض)) فالملك العريض هنا يغني الله عن عبادة العابدين ، ويجعل كفر الكافرين لا يحيق الا بهم ، كما يمكن أن يدل على تهديد ووعيد ، فأنتم أيها الناس مما تحوي الأرض، وتظل السماء ، وما خلقتم الا للعبادة لي ، والايمان بي ، انتم ملكي أعمل فيه ما أشاء ، فان أطعتم أصبتم الخير ، ونلتم الجزاء ، وان عصيتم حل بكم العذاب ونزل بساحاتكم البلاء .

كل هذا انما هو من ظلال ذلك التعبير الذي تكرر في السور والآيات ، وهو يحمل الينا مقدار ما تحتله السماء والأرض من نفوس الناس حتى تسلق صورهما في القرآن مثالا للتهديد تارة ، والاستغناء أخرى ، وللبرهان ثالثة ، أو لما يمكن ان يتصوره عقل انسان أو يشعر في بعض الاحوال .

ولعل عنصر التهديد انما يبرز في سورة الأنبياء (٢) ، بروزا واضحا حيث يقول الله : ((يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده)) وكذلك في سورة الملك : ((أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هي تمور ، أم امنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير (٣) .))

إلا أنه يقابله عنصر آخر ، يحمل الوداعة ، ويشيع الأنس ويبث النعمة الالهية في الأرض، دون أن يغيب عنصر الدلالة على الله ((ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحيي الموتى ، انه على كل شيء قدير . (٤))) ((هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا" ، فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه واليه النشور)) (٥) ((ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم ، إلا" من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين ، والأرض مددناها

---

(١) آية ١٧٠ .

(٢) آية ١٠٥ .

(٣) الملك ١٧ — ١٨ .

(٤) فصلت ٣٩ .

(٥) الملك ١٥ .

وألقينا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنالكم فيها معايش، ومن لستم له برازقين ، وان من شيء إلا عندنا خزائنه ، وماننزله الا بقدر معلوم)[1] ((ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين[2])) .

قوة وجبروت ، وسعة ورحابة .. دعوة الى التأمل ، ونداء الى التدبر، وعيد وتهديد ، ووعد ونعمة ... تلك هي الخطوط الكبرى للوحات السماء والأرض، فمن شاء أن يتصورهما كواكب تسير أو دخانا يصاعد ، أو فضاء " لا ينتهي فليفعل ، ولكن لا ينسى ظلال الأدب الحسي .

× × ×

البـــــر والبحـــــر :

إذا كان القرآن الكريم يقرن ذكر الأرض الى ذكر السماء ، فان هناك ثنائية أخرى من عناصر الطبيعة ، يؤلف خيوطها البر والبحر ، ففي اغلب المواقع تجدهما مذكورين معا ثم ان هذين العنصرين يدلان على علم الله الأزلي ، الذى يحيط بالكون فلا تخفى عليه خافية في أعماق البحار ، ولا في مجاهل البر ، وكيف لا يكون ذلك ((وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر[3])) .

ويلاحظ هنا عنصر جديد من فضل الله على عباده ، فهو يمن عليهم ان هداهم في تلك الظلمات الحالكة ((وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر[4] ((قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخفية[5])) .

فأنت هنا تلاحظ جوا من الرهبة يغشى ذينك الجسدين الكبيرين : بحرا يملأ القلب روعة حين يغضب ويزبد ، فتمتد العين فلا يقع بصرها الا على ماء يهتاج ، وسماء تدلهم ، وبرا يضل فيه الطرف ولا يكاد يميز الأفق المنجي من الأفق المهلك ... في تلك

---

(١) الحجـــر ١٧ — ٢١ .

(٢) الملـــك ٤ .

(٣) الأنعـــام ٥٩ .

(٤) الأنعـــام ٥٩ .

(٥) الأنعـــام ٦٣ .

اللحظات الشداد تتجلى رحمة الله ، فتخلق من الظلمة نورا . ومن الضيق فرجا ، ومن الموت المحتم حياة طروبا ، ولكن الانسان كفور ، فلا يكاد يأمن من خوف ، ويهدأ من اضطراب ، حتى ينسى فضل الله ، ويطغى ويعلو بنفسه الهزيلة الضعيفة ، .. لقد أمن غوائل البحر ، وظن أن البر موطن النجاة ، وماعلم أن الله قادر على أن يخسف به الأرض أو يرسل عليه حاصبا ((واذا مسكم الضر في البحر ، ضل من تدعون الا إياه ، فلما نجاكم الى البر أعرضتم ، وكان الانسان كفورا ، أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا" ، أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بماكفرتم [١])) .

تهديد ممزج بالرحمة ، وانسان يمتزج فيه الخوف بالطغيان ، فليكن الوعيد مخففا من غلواء تمرده ، ولتكن الرحمة شاملة لضعفه .

أما صور البحر وحده ، فمتنوعة وملونة ، فكما أن هناك البحر العذب ، تجد ثمة بحرا ملحا مر المذاق ((وما يستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا ، وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون [٢])) .

تلك صورة امتزجت فيها الرهبة بالنعمة ، وهذه أخرى كلها هدوء وركون : ((وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون [٣])) .

وأحيانا لاترى من البحر إلا الجانب المتجهم العابس على غرار مانجد في سورة النور حين يشبه أعمال الذين كفروا بسراب بقيعة أو بظلمات : ((في بحر لجي يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، اذا أخرج يده لم يكد يراها [٤])) وكذلك في سورة الأعراف حين يتحدث عن بني اسرائيل الذين خالفوا أوامر الله : ((فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ، بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين [٥])) .

---

(١) الاسراء ٦٧ — ٦٨ — ٦٩ .

(٢) فاطر ١٢ .

(٣) النحل ١٥ .

(٤) النور ٤٠ .

(٥) الأعراف ١٣٥ .

وهكذا نجد صور البر والبحر ، تعرض في القرآن بحسب المقصد الذى ترمي اليه الآيات ، ولانجد فيه حديثا علميا مفصلا عن كيفية خلقهما وتكوينهما كما نجد في سفر التكوين من التوراة ، فهناك العرض الأدبي الراقي ، كما أن هناك الغاية التي تطلب من وراء ذلك كله .

× × ×

الجنة والنار :

لانستطيع أن نغفل الصور الطبيعية الرائعة ، للرياض الخضر ، والجنات الوارفة ، ونحن نعرض الأجزاء الطبيعية عنصرا بعد عنصر ، وجزءا بعد جزء ولكن علينا أن ننبه أن الجنة انما تمثل المثالية في الجمال الأخاذ ، والفتنة الواضحة ، فهي عالم غيبي لاتراه الأنظار وان تصورته الخيالات ، ولاتحسه القلوب إلا اذا أوتيت ايمانا عميقا ، ورحمة ضافية . واذا كانت الجنة هي الطبيعة الضحوك فان النار تمثل الطبيعة الغضوب ، وانهما ثنائية جديدة في سور القرآن ، تصور هذه لتحمل على الاطمئنان نفوسا مؤمنة يهزها الكفر ، خاشعة يحاربها الضلال ، صافية يغشاها الزيغ ، وتصور تلك لترهب قلوبا متحجرة استبد بها الظلام ، واستأثر بها الشرك واستحوذ عليها الضلال والعصبية .

وانك لتلاحظ هنا ألفاظا عامة لاتتوسم من ورائها المعالم ، ولاتتضح لك القسمات وانما تبقى في جو غامض مبهم ، ليبهم بك الخيال ، ويجمح بك التصور :

((وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم ، وبئس المصير ، اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور ، تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى ، قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء ان انتم إلا في ضلال كبير ، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير [1])) .

ياللهول النار تغضب حتى لتكاد تشقق من الغيظ ، ثم هي تفور وتمور ، كأنها وحش كاسر أمام متعدمكابر ، فها هي ذى المشاعر تتلبسها فتلتف كل أفناك أثيم ، ولكن هل

---

(١) الملك ٦ حتى ١٠

يقف الأمر عند هذا الحد ؟ لا ... فهناك عذاب غير العذاب المادي الذي يلقاه المجرمون في مهمه الجحيم ، عذاب داخلي نفسي ، يمزق نياط القلوب ندما وحسرة ، فهاهم أولاء المعذبون تقرعهم الملائكة ، وتعنف بهم الزبانية ، وتحملهم على الندم ، لأنهم لم يتبعوا الأنبياء ولم يهتدوا بالرسل ، وانك لتسمع أصواتهم في قلب النار تفيض بالألم وتغمر بالحسرة المريرة : ((لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير))

كل هذا يحيطك بجو من الغموض والتكبير ، فأوصاف النار غير واضحة ولا بارزة وهي تمثل العذاب ولا توضح المعالم ، وتهدد الظالمين ولا تصف الآثار ، فانظر الى هذه الآيات ، ((كلا انها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى (٢))) ((سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر (٢))) . وربما أعرض عن ذكر النار وأكتفى بذكر العذاب مجردا منها كما في سورة القلم (٣) : ((يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون)) .

وربما طالت آيات النار ، ولكنها أبدا تعنى بتصوير العذاب والابقاء على الغموض في الأوصاف ((خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، انه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون (٤))) .

وصور الجنة غامضة أيضا ، تعنى بتصوير النعيم ، والمباهج والمسرات ، ولا توضح أوصاف الجنة كل التوضيح ، ولكنها على كل حال أقل غموضا من صور النار ، ففي سورة الدهر وصفت جهنم مستعملا" معها التنكير في الكلمات زيادة في الابهام ، على حين أوردت صور الجنة مطولة زائدة : إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا" وسعيرا))

---

(١) المعارج ٦ حتى ١١ .

(٢) المدثر ٢٥ حتى ٣٠ .

(٣) ٤١ حتى ٤٤ .

(٤) الحاقة ٣٠ حتى ٣٧ .

ثم يقول عن المؤمنين ((وجزاهم بما صبروا جنة وحريـــرا ، متكئين فيها علـــــى الأرائـك لا يرون فيها شـمسـا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليـلا" ويطاف عليهم بآنية من فضـة وأكـواب كانت قواريرا . قواريرا من فضـة قدروها تقديرا ويسقون فيها كأسـا كان مزاجها زنجبيـلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ، واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ، عاليهم ثيـاب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضـة وسقاهم ربهم شـرابا طهورا [1])) .

فأكثر ما يستخرج من هذه الآيات أن الجنة دار نعيم ، فيها أرائـك وثيرة ، وفيهـا ألوان من الفواكـه الطيبة ، والشـراب اللذيذ ، كما أن فيها ولدانا يطوفون على أصحابها بأكواب من فضة ، وهذه النعم نفسـها تذكر في سورة صاد [2] ((وان للمتقين حسن مـآب جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشـراب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب)) .

وانـك لتلقى هذا الغموض أحيانا ينكشف في سورة واحدة شيئا فشيئا ، كما في سورة ((محمد)) فهو في الآيـة الخامسة يكتفي بقولـه : ((ويدخلهم الجنة عرّفها لهم)) حتـــى اذا وصل الى الآية الحادية عشرة قال : ((إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحـــات جنات تجرى من تحتها الانهار)) ثم يصل الى الخامسة عشرة فيقول ((مثل الجنة التي وعـد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمـر لذة للشاربين ، وأنهار من عسـل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة مـــن ربهـم)) .

ففي الأولى من هذه الآيات الثلاث أوجز ايجازا" شـديدا ثم أضاف الأنهار فـي الثانية لها ، ولكنها أنها رغير معرفـة ولا موضحة ونبقى هكذا حتى تبينها في الآية الثالثة كما رأيت .

بقي أن نتساءل ما سـر هذا الغموض؟ ولماذا كان في النار أكثر منه في الجنـة؟ أهـو ضرب من الايجاز ؟ أم أن هناك أمـرا آخر خرج عن سنة العرب في تعبيراتهـم واشعارهم ؟

ان المجرم قبل أن يحكم عليه يكون في اشد اوقاته تبرما وضيقا ، لأن العـذاب

---

(١) الدهـــر ١٢ ــ ٢١ .

(٢) صـــاد ٤٩ ــ ٥٢ .

النفسي الذي يراوده ويخطر له ، يملأ كيانه ، ويغمر نفسه ، حتى اذا سمع الحكم ارتاح واطمأن لأنه ايقن أن سجنه وان طال سينتهي ، وكذلك الذي يحكم عليه بالأعمال الشاقة اذا عرف ان مدة العمل في قطع الصخور ثماني ساعات عمل يصبر وثبات ، ولكنه اذا وضع امام الجبال وسُلّم المعول وحمل على العمل دون ان يعرف الوقت ، كان بين سواد القنوط ، واشعاع الرجاء ، فيقتله العذاب الداخلي قبل العذاب المادي .

فالابهام في المشقات مرير وصعب يدع الانسان يفكر ويهجس ويتعذب بهذا كله وهو في الافراح والوعود مريح وبهيج لأنه يدع الانسان يفكر في نوال يأخذه ، وسعادة يدركها ومن هنا أبهمت صور النار لتكون أشد وقعا على الكفرة الفجرة ، وأبهمت صور الجنة لتكون أكثر متعة في نفوس المؤمنين ، وأقوى اشتياقا في نفوس الراجين ، ليطلعوا على مافيها ، وليصلوا الى سعادتها المرجوة .

ولقد رأينا في إيراد اجزاء الطبيعة الأخرى أغراضا متشابهة ، وأهدافا متقاربة ، أما هنا فنجد نوعا من المغايرة والتباين ، ولعلّ مرجع هذا الى أن هذين العنصرين من الطبيعة غير المرئية فيما حولنا ، ثم هما في آن واحد معاد البشرية كلها . ((فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره)) . ويدخل دار السعادة ، ((ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)) ويدخل دار العذاب .

ماهي إذن أغراض ذكرهما ؟

نحن نبصر هنا ضربا من الدعوة الى تعاليم الاسلام ، فأصحاب الجنة لم يدخلوها إلاّ بعد أن اتبعوا رسلهم ، وصلّوا وذكّروا وآمنوا بربهم حق الايمان ، وأهل النار ما دخلوها الاّ لأنهم حاربوا النبيين ، وتمردوا على الحق ، وقتلوا النفس المحرم قتلها فهاهم أصحاب الجنة أولاء يقبل ((بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنا كنا قبل في اهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم [1])) .

((ولمن خاف مقام ربه جنتان [2])) . وهكذا نرى الدعوة هنا واضحة الى

---

(١) الطور ٢٥ حتى ٢٨

(٢) الرحمن ٤٦

الرجوع الى الله والخوف منه ، كما تبصر في صور النار وما يكره الاسلام وما يحارب :((وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لابارد ولاكريم ، انهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ، أوآباؤنا الأولون (١))) .

ويريد الله أن يُري المشركين أن ماهم فيه باطل ، وأن هذا النور الوضاء الذى تحمله اليهم أمانيهم إنما هو خُلّب ، ويريد أن يريهم ايضا أن اعمالهم من تعذيب المؤمنين والتنكيل بهم ، لن تضيع عند الله ، فهي طريق الى النار المضرمة الجبارة . ((ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم انفسكم ، وتربصتم ، وارتبتم ، وغرتكم الامانى ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لايؤخذ منكم فدية ، ولامن الذين كفروا ، مأواكم النار ، هي مولاكم ، وبئس المصير (٢))) .

في كل هذه النصوص التي مرت ، نلمح غرضا جديدا لهذه الطبيعة المثالية ، هو هذا العرض لصفات أهل النار وصفات أهل الجنة ، وتهديد قوم ووعيدهم وتسلية قوم ووعدهم ايضا ، هنا عذاب لايطاق ، وهناك سعادة لاتفوت ، هنا حمم تلتهم المجرمين وهناك انهار تروى المؤمنين ، وفي كلا الموقفين حكمة ومغزى وعبرة يعرفها العرب الذين نزل فيهم القرآن .

وملاحظة أخرى في هذا الصدد ، هي عرض الصورتين في مكان واحد بعد تمهيد لهما بزعزعة الطبيعة كلها ، ليقف الانسان أمامهما وينتقي طريقا ويختار مكانا ((إن يوم الفصل كان ميقاتا ، يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا ، وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا (٣))) .

على هذه الزعزعة كلها يقوم التمهيد لمشاهد الحشر ، فقد نفخ في الصور فصعق من في الأرض لأنهم لم يكونوا على علم بها ، ثم ينظرون وقد أخذتهم الرجفة ، فاذا السماء مفتحة الأبواب ، واذا الجبال متطايرة ، واذا هم أمام المصير المحتوم وجها لوجه ، بعد هذا كله تعرض الصورتان ((إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا

---

(١) الواقعة — ٤١ حتى ٤٨ .

(٢) الحديد —

(٣) النبأ — ١٧ — ٢٠ .

لايذوقون فيها بردا ولا شرابا ، إلاّ حميما وغساقا ، جزاء وفاقا ، انهم كانوا لايرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شيء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم إلاّ عذابا ان للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا ، لايسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، جزاء من ربك عطاء حسابا (١))) .

ماذا يعمل السامع غير أن يختار الحدائق والاعناب ، والكواعب الاتراب ، وغير أن يصدف عن الحميم الغساق ، وعن هذا العذاب الشديد ...

ذاك هو جماع صور الجنة والنار ، ولكن الذى يجب أن يذكر هنا ، ولايفوت هو جواب هذا السؤال : أى النوعين كان أكثر عناية وأكثر ذكرا في القرآن الكريم ؟ هي صور النار ... فالمشاعر تتلبسها في مواضع كثيرة كما في الفرقان حيث الآية : ((اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظا وزفيرا (٢))) . فالنار هنا هي التي ترى القوم ، وهي التي ترسل هذه الصيحات المنكرة التي تملأ قلوبهم رهبة وصدورهم خوفا لكأنها تريد أن تعذبهم قبل أن يبلغوها ، فترتعد فرائصهم من رؤيتها ، ويحدق بهم عذابها وهم عنها بعيدون .

وهذا واضح في السور المكية حين نزل القرآن وكان المسلمون أقلة معذبين ، وكان المشركون جبابرة ظالمين ، فليبصر المسلم المعذب عاقبة من يعذبه ، وليعلم أن فوق الجبابرة العتاة جبارا يملأ بجبروته السماء ويظل برحمته الأرض .

الجبال :

أما الجبال الذاهبة في السمو ، الآخذة في آفاق السماء ، فلها في نفوس الناس مكان الرهبة ، وموضع الخشية ، حتى ان أوربا كانت تخشاها قبل القرن الثامن عشر ، وبصورة خاصة سكان السهول منهم ، ولعلّ هذا لايصح على العرب ، فان طبيعة بلادهم كانت تدفعهم الى تسلق الجبال ، والعيش في أحضانها ، وان وجدوا فيها معنى الضخامة والرسوخ والاستقرار ، وشبهوا بها أحلامهم الكبيرة ، على غرار مانجد عند كثير من الشعراء الجاهليين والاسلاميين .

ومكانتها هذه عند القوم هي التي جعلتهم يصفونها في أشعارهم بالقوة والعظمة :

---

(١) عمّ — ٢١ — ٣٦

(٢) الفرقان ١٢

ماكنت أعلم قبل موتك أنـــــا رضـوى على أيدى الركاب يسيـــر

وحملتهم على أن يفخروا بها إن كانت مجاوره لهم :

هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكــره منيع يرد الطرف وهو كليـــل

رسا أصله تحت الثرى وسما بـــه الى النجم فـرع لاينال طويـــل

كما جعلتهم يشتقون منها كلمات لتدل على معنى العظمة والرفعة (١) ، ليدخلوها في لغتهم المثالية وفي لغة حديثهم العادى •

ومن هنا كان هذا العنصر من الطبيعة يوحي للعرب بالاحترام والاكبار ، والاجلال والقوة ، ولذلك كان وروده في القرآن يحمل بعض هذه السمات والطوابع ، وينأى عنها فـــي مرات ومرات ، فالجبال في القرآن تمثل القوة في شتى صورها وألوانها ، فاذا صد المشركون عن هذه الآيات العلوية التأييد ، ولم تخشع قلوبهم »» وتلن أمام تلاوتها عليهم ، فليضرب لهم مثلا" هذه الجبال الصلبة الغليظة ((لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعـا متصدعا من خشية الله (٢))) ـ ((ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت بـــه الارض أو كلم به الموتى ، بل لله الأمـــر جميعا (٣))) • فهي في الآية الأولى تخشع لله العظيم حين ينزل القرآن عليها ، وفي الثانية تسير مزعزعة مرتجفة لما أنـزل فيها من خـــوف الله ورهبته •

وتتمثل القوة من طرف آخـر ، فالمعروف أن بني اسرائيل طلبوا الى موسى عليـــه الســـلام أن يريهم الله جهرة » ليؤمنوا به ، ويتبعوا دينه ، فغدا موسى الى حيـــث وعـده ربـه ، فلما صار اليه ((قال رب أرني أنظر اليك ، قال : لن تراني ، ولكن أنظـر الى الجبل ، فان استقر في مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخـــر موسى صعقا ، فلما أفاق قال : سبحانك »» تبت اليك ، وأنا أول المومنين (٤))) •

جبل عتيد ، يدكه تجلي الله وظهوره له ، فما بالكم وأنتم بشر لاتخشون من رؤيـة

---

(١) من ذلك هذه الكلمات : الشـرف ـ الشموخ ـ الشـــم ـ الرفعة ـ العلو ـ كلها فيها معنى الارتفاع •

(٢) الحشـــــر ـ ٢١ •

(٣) الرعـــــد ـ ٣١ •

(٤) الأعــــراف ـ ١٤٢ •

الله جهـرة ، ولاتشفقون على نفوسكم الضعيفة أن تصعق حين ترون الله في هذه الدنيا الراهنة .

ويلي هذه الناحية في الجبال ، ناحيةُ القوة ، ميزةٌ ثانية تأتي نتيجة لهـا أو كالنتيجة ، فهي تتخذ في مواضع كثيرة أداة ترهيب ، وتصوير لهول الحشر أو لهول ضربات الله للمذنبين ، ففي أهـوال القيامة لاتجد أمامك صخورا عاتية ، ولاجبالا" شاهقة ، وانما تراها عهنا منفوشا ، أو سحابا متطايرا ، أوكثيبا مهيلا" ، كما تلمّح لها هذه الميزة في غير مشاهد القيامة ، إذ يصوّر لك بنو اسرائيل ، ينكرون تعاليم توراتهم ، ويتمردون على ماأنزل الله ، فينظرون الى السماء ، فاذا بجبل يظللهم ويرتفع فوقهم ، فتشخص أبصارهم وترتعد فرائصهم ، ويوقنون بالموت الزؤام فيهتف صوت الهي يأمرهم بالعودة الى تعاليم دينهم وامتثال أوامر ربهم ((واذ نتقنا الجبل فوقهم ، كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم خذوا ماآتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون [1])) وترى الجبال في مواضع أخرى موطن النعمة ، ومكان الفضل ، اذ يتخذ منها النحل بيوتا ، ويجعل منها البشر سكنا يحميهم البرد إذا كان الشتاء ، ويقيهم الحر إذا كان الصيف ((والله جعل لكم مما خلق ظلالا" ، وجعل لكم من الجبال أكنانا [2])) كما أنها أوتاد راسخة في الأرض وشامخة في السماء ، فهي أداة توازن وتماسك لهذه البسيطة : ((وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم)) .

وتبقى ملاحظة أخيرة ، هي هذه الظلال النفسية التي تحملها الجبال ، والتي تضفي عليها فتجعلها تحس كما يحس البشر ، تخشع آنا ، وتسبح آنا آخر ((لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله [3])) ((وسخرنا مع داود الجبال ليسبحن والطير ، وكنا فاعلين [4])) . ونحن لانفقه هذا الخشوع ، كما لانعرف ذلك التسبيح ، ولكننا ننظر فيما يبدو لنا من معان أدبية راقية ، تؤخذ من طريق قريبة وايجاز سحري فتصاغ عناصره ومعانيه بكلمات قليلة ولكنها موحية ، تحمل الى آفاق واسعة

---

(١) النحل — ٨٠ —

(٢) الحشر — ٢١ —

(٣) الانبياء — ٧٩ —

وجـــواء رحيبة مديدة •

وتزيد هذه الميزة سموا في نفوسنا إذا نحن تذكرنا أن وصف الجبال في الشـــعر العربي منذ أن فرمنها ((تأبط شــرا)) لم يكن مما يلفت النظر ، أو يحمل على الروعـــة حتى كان ابن خفاجة الأندلسي فألقى عليها من ظلال نفسه ماجعلها ذات مكانة حلوة وموقع جميل ، ولكن القرآن ألبسها الشعور أيام الجفاف ، وخصها بالخلجات النفسية أيام الصلابة والجبروت ، فكانت لينة على غلاظتها ، ندية على جفافها ، خاشـــعة ذليلة على عظمتهـــا ومنعتها •

الحيـــــوانات :

اذا كنا قد طالبنا الشــاعر الجاهلي بالاندماج في الطبيعة ، والامتزاج بهـــا صامتة أو حـــية ، فاننا لانستطيع أن نفصل ذلك هنا ، فشتان بين نظرة الانسان الـــى المخلوقات من غير جنســـه ، وبين نظرة الله الذى خلق كل شيء ، ومن هنا ستكون أوصاف الحيوانات في القرآن الكريم لاتختلف في مميزاتها عن أى عنصر آخـــر من عناصر الطبيعـــة الصامتة ، اللهم إلا في بعض المواقف والمواضع •

فهي تدل على قدرة الله الشاملة الواسعة ((وما من دابة في الأرض ، ولا طائـــر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم [(١)])) — ((ألم يروا الى الطير مسخرات في جو الســـماء مايمسكهن إلا الله ، ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون [(٢)])) •

هنا تكمن القوة الخارقة العجيبة ، يتصور الانسان قدرة ما ، ثم يتخيل قدرة فوقهـــا ومايزال الخيال يجمح به حتى ينتهي الى قدرة كاملة فائقة ، لاتقف عند حد ، ولاتستقر عند امر ، فسيتيقن أنها الهية المصدر ، ربانية التكوين ، غير ان ذلك يفكر به الرجل المثقـــف الذى عاش في العصور العباسية المتأخرة ، واطلع على آراء فلاسفة اليونان كأرسطو وافلاطون اما العربي في صحرائه الهادئة ، أو قريته الساذجة ، فلن يتمثل هذا الا بمثال محسوس او مشاهدة مادية ، فلتكن هذه الطير في السماء ، وتلك الدواب في الأرض ، في كثرتهـــا وازدحامها • مثالاً يضرب لعلم الله الأزلي ، وقدرته العجيبة •

وكذلك نلمح هنا الغاية التي لمسناها ، في الأرض والسماء ، والبر والبحر ، من تسخير قوى الطبيعة للدلالة على الله ، او لتبيان نعمه وفضله على الناس ، ((والأنعـــام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحـــون وتحمل اثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرؤوف رحيم ، والخيـــل

---

(١) : الأنعـــــــام — ٣٨ — (٢) : النحـــــــل — ٧٩ —

والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون (١))) ، تلك نعم لا تقف عند حدود المادة ولا تحدها المنافع الظاهرة ، فهناك من عالم النفس تقوم لذة ، ويبرز ارتياح من رؤية هذه الانعام حين يغدى بها مع الصباح ، ويراح بها مع المساء .

وقد نلمح في بعض الاحيان ضربا من التعميم في النعم والفضل لانستطيع ان نتصوره لانه لا يكون الا في عالم التجربة ، أو في طيات المستقبل ففي سورة ((يس)) يعدد الله بعض الفوائد للحيوانات ، ثم يقول : ((ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (٢))) فأنت تقف من هذا التنكير ((منافع)) وتتساءل : ماهي ؟ ماعددها ؟ ماقيمتها ؟ كيف تحصل فلا يلبث أن يحلق بك الخيال في أجواء فسيحة ، تغمض تارة . وتبين أخرى ، فتنتقل من فائدة الى فائدة ، تعد وتعد ثم ترى نفسك عاجزا عن الحصر والاستقصاء .

ونلمح آنا ثالثا عنصرا آخرا يدخل في المنافع ، هو هذا التدبيج والتلوين ((وأوحى ربك الى النحل أن أتخذى من الجبال بيوتا ، ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللا" ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (٣))) .

لا يفقك هنا هذا الايحاء اللطيف ولا تروعك تلك الخلايا العجيبة الصنع ، الدقيقة التركيب ، ولا يستهويك هذا الأمر للنحل باتخاذ السبل التي ذللت لها ... ليس هذا وحده موطن الروعة والقوة ، انما موطنها هو الأكل من كل الثمرات على اختلاف تركيبها وتنوع مادتها ، ليخرج فيما بعد عسل لا يختلف طعمه ، ولا يتنوع مذاقه ، أليس ((في ذلك آيات لقوم يتفكرون)) .

والباحث المدقق في أوصاف الحيوانات كما يعرضها القرآن الكريم يتصدى لألوان من الشعب والتنوع في ماهياتها واختلافاتها ، فهو يلاحظ الحيوانات المستهجنة كالقرود والخنازير ، وهذه نفسها لا يخلو ذكرها من أهمية الدلالة ، وكبر القيمة ، فهي

---

(١) _ النحل ٥ حتى ٨ .

(٢) _ يس ٧٣ .

(٣) النحل ٦٨ _ ٦٩ .

تصور المغضوب عليهم من الضالين :((قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، من لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل [(١)])) .

كما أنها تحمل تهديدا لمن تأتيه أوامر السماء على لسان النبي (ص) فيتكبر عنها ، ويتجبر عليها ، فاذا هي مآلـه ونهايته ، كما صنع بأمثاله من الأمم السابقة ((فلما عتوا عما نهوا عنه ، قلنا كونوا قردة خاسئين [(٢)])) . وربما عرض القرآن لحيوان واحد صورا متنوعة ، فهي آنا مما يستهجن ، وآنا آخر مما يستلمح ، فالحمار الذى ذكر على أنه من النعم ، تساق له صورة هنا ، في غاية من الدقة في التمثيل والتحديد ((مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل اسفارا [(٣)])) . وللطيور صور طريفة حلوة ، فهذا هو الهدهد الذى سخر لسليمان ، يصبح رسولا" يقظا متنبها يلاحظ مايدور في ملك بلقيس، ثم يحمل الأخبار الى مولاه ، فلا تفوته لفتة ، ولا تغيب عنه اشارة ، وهذه هي الطيور كافة تسخر لداوود ، تسبح الله مع الجبال ((إنا سخرنا الجبال معه ، يسبحن بالعشي والاشراق ، والطير محشورة كل له أوّاب [(٤)])) .

وهناك الطيور الجارحة الفتاكة ، يكمن في مخالبها موت الظلم ، وتتمثل في براثنها إبادة الشرك ، ((ومن يشرك بالله ، فكأنما خرّ من السماء ، فتخطفه الطير ، أوتهوى به الريح في مكان سحيق [(٥)])) .

وقد تعرض صور الطيور عرضا آخر ، على غرار ماتشاهد في هذه الآيات ((اني أريد أن تبوء باثمي واثمك ، فتكون من اصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال : ياويلتا ، أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب

---

(١) المائدة — ٦٠ .

(٢) الأعراف — ١٦٦ .

(٣) الجمعة — ٥ .

(٤) ص — ١٨ — ١٩ .

(٥) الحج — ٣١ .

فأوارى سوءة أخي [1])) .

هنا تصوير لمجرم البشرية الأول قابيل ، يقتل أخاه ، ثم لا يلبث أن يرى جثته أمامه ، فيحار فيها ، وتأخذ به الحيرة كل مأخذ ، أليست حياته تجارب واختبارا أليس هو وأبوه وأمه الرائدين الأول للبشرية بعدهما ؟ انه لا يعرف ما عليه إزاء هذه الجريمة التي اقترفتها يداه فتطول به الحيرة ، ويمتد به الوجل ، ثم يلتفت فاذا بغراب أسفع الخدين — كما يقول زهير — يبحث في الأرض ، ويحفر فيها ، فيهتدى بعد ضلال ، ويهدأ بعد اضطراب ، ويتعلم بعد جهل ، ولكنه لن يكابر بقوته ، ولن يعاند متمدحا بجبروته وانما سيعرف عجزه ، ويطلع على ضعفه ويهمس في نفسه ((ياويلتا !! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ، فأوارى سوءة أخي .

عناصر أخرى :

لعل الظاهرة الأولى في ذكر عناصر الطبيعة ، هي هذه الثنائية فالأرض مع السماء ، والبر مع البحر ، والشمس مع القمر ، والليل مع النهار ، والجنة مع النار وان كنا في بعض الأحيان نلمس تحطيما لهذه الثنائية ، وذكرا لهذه العناصر منفردا بعضها عن بعض .

ولكنها كلها تصور تصويرا حيا ، لا تختفى فيه المعالم ، ولا تغيب فيها الظلال ، ولا تضيع فيها الغاية التي سيقت من أجلها ، فالشمس والقمر وسائر النجوم مثلا" لا تجرى عبثا وانما لنعلم عدد السنين والحساب ، ولنهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، كما نجد في ذكرهما في القرآن باعثا آخر هو نفي الخرافات والأساطير ، ومحاربة عبادة الشمس والقمر بطريقتين مختلفتين [2]

والشمس وحدها تنفرد بالذكر في هول القيامة ((اذا الشمس كورت)) لأنها أكبر جرما من القمر ، ولأن الانسان يشعر بجبروتها وقوتها عليه أكثر مما يراوده الشعور المماثل في القمر ، بل انه ليشعر إزاءه بتفجر إحساس الجمال وقوة الشعور بالفتنة .

أما الكواكب الأخرى فسلاح نارى يحرق الجن المسترقين للسمع ، ولعل هذه الفكرة التي أشاعها مشركوا الجاهلية ، من أن الجن ترتفع الى العالم الأعلى فتستمع الى مايوحيه الله للملائكة ، والى كل مايدور في السموات لتبلغه الكهان ولتبلغه محمد (ص) هذه الفكرة كانت عقبة كؤودا في وجه دعوة الاسلام السماوى ، كما أن انقضاض

---

(1) المائدة ٢٩ — ٣١ (٢) سيمر تفصيلهما بعد قليل

الشهب على الجان آثار شكوكا وأوهاما لكثير من الباحثين ، مما حمل الامام الرازى في ((مفاتيح الغيب)) الى أن يرد عليهم ردّه المعروف ، (١) .

ونحن هنا لن ندخل في مناقشة هؤلاء ، ولا في عرض افكارهم وأفكار من تصدى لهم من العلماء ، وانما نكتفي باظهار مكانة هذه الكواكب والشهب في آى القرآن الكريم .

فنحن نرى لها وظائف كثيرة ، منها هذه الوظيفة التي تقضي على الشر قبل أن يستفحل ، وتكيد للفتنة قبل أن تتم ، ومنها هذا الاشعاع في الجو الفسيحة ، فهي منائر وزينة ((إنّا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطار مارد ، لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويُقذَفون من كل جانب ، دحورا ولهم عذاب واصب ، إلاّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (٢))) ((ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير (٣))) .

أما الليل والنهار فلهما دلالة عظمى على وجود الله فهما نتيجة عن تكوين الطبيعة بهذا الصنع الدقيق ، شمس تشرق فتشرق معها قلوب نائمة ، وعيون مغمضة ، ونفوس تُحِسة ، ويهبّ الانسان ليعمل ويكسب المعاش ليبقى على الأرض حيا ، يحقق في وجوده سر الوجود ، ويتابع في حياته نهج الحياة ، وليقضي الله أمرا كان مفعولا ، ثم يصيبه التعب ، وينزل به الاعياء ، فهو في حاجة الى الراحة بعد التعب ، ولهذا خلق الله له الليل ، ليسكن فيه ويرتاح ، فيجدد العزم ويتابع الشوط ، أليس في كل هذا معنى الهي ، ومجال لمن أوتي العقل أن يعقل ((هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون (٤))) . واذا كان الليل ضجعة يستريح فيها الجسم فان النهار مصدر لآثام الانسان ، ومجال لاقترافه الاخطاء

---

(١) وقد تطرف في ذلك الدكتور محمد خلف الله في كتابه ((القصص الفني في القرآن)) فعد هذه الفكرة خرافة جاهلية لاحقيقة لها ، ولكن القرآن الكريم أراد محاربتها ونفيها فجعل استراق السمع ممنوعا بعد ظهور محمد (ص) ، لأن النجوم تنقض على الجان وتحرقهم .

(٢) الصافات ٦ ـ ١٠ . (٣) الملك ـ ٥ ـ

(٤) يونس ـ ٦٧ .

((وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار [١])) .

وكثرة الآيات التي تدل على وجوده بوساطة الليل والنهار فيها دليل على أهميتهما وعظم خلقهما ((إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)) ((وهو الذي خلق الليل والنهار [٢])) ((وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم [٣])) .

والليل أبدا مجال التستر ، والنهار عنصر البروز والوضوح ، ((الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام ، وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة ، الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل ، وسارب بالنهار [٤])) .

وقد يساق الليل لتشبه به وجوه أسودت لسواد الطوايا ، ((مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار [٥])) .

وأكثر ما ترد الأنهار في معرض تصوير جنة النعيم وقلما تصور الجنة بلا أنهار على غرار ما في سورتي الصافات وصاد ، فهي إذن ينبوع الجمال الطبيعي ، كما أنها ينبوع الخيرات والبركة في واسع أمرها ، فاذا وصف فرعون بالجبروت ، وتوفر البركة والنعمة من حوله ، صورت الأنهار تجري من تحته ، واذا ضرب مثل لقريش بأمم قبلهم ، كانوا أشد بأسا وأعز نفرا ، وأغر نظرا ، حملت اليهم الصورة نفسها بالمعرض نفسه ((ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم [٦])) .

ولم لا تساق للدلالة على الله اذا توفر لها كل هذا الجمال ؟ ((أم من جعل الأرض قرارا " وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا

---

(١) الأنعام — ٦٠ —
(٢) الأنبياء — ٣٤ —
(٣) الأنعام — ١٣ —
(٤) الرعد — ٨ — ١٠ —
(٥) يونس — ٢٧ —
(٦) الأنعام — ٦ —

أ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون [١])) .

وهناك عنصر آخر لا يختلف عن العناصر الأخرى في ازدواجية الوظيفة . هو عنصر الرياح التي تسير لواقح ، فتثير سحابا يصب على أرض جرداء يسقيها من ظمأ ، ويهزها من سكون ، وينضرها من جفاف ، كما أنها تثور على قوم تجبروا وعتوا فتطيح بهم ، وتجعل عالي ديارهم سافلها ، فكأنها جندي إلهي ، يظلم الظالم ، ويعتو على العاتي ، ويدمر المستبد ((كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر [٢])) .

وهي مسخرة لسليمان كما سخرت الجبال لداوود ، تجري بمشيئته ، وتخدم أغراضه التي اليها يهدف ، واليها يسعى بأمر من أمور الله جلّ شأنه ((وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين [٣])) . ((ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر [٤])) .

× × ×

بعد هذا العرض السريع لعناصر الطبيعة ، ينبغي أن نذكر أن الحديث عنها منفصلة يجعلها مجزأة العرض ، مفككة الأوصال ، فقد كان القرآن الكريم يجملها كلها في مشهد واحد في غالب الأحيان ويسوق كثيرا منها للدلالة على قدرته أو وجوده أو حكيم صنعه ، ففصلنا إياها هنا لا يعني إلا شيئا واحدا ، هو توضيح الصور العامة لكل منها وابراز معالمه وتناول القرآن له ، ولقد بدا لنا في عرضها أن أغراضها متنوعة ولكنها تتحد في نهاية المطاف لتدلّ على الله أو لتبسط في الأرض آثاره ، وقد ذكرت هذا في الصفحات الأولى من هذه الرسالة ، لأبين الفوارق الشاسعة بين مانقرأ للشعراء الرومانتيكيين من انكليز وفرنسيين وبين مانجده في الكتاب المقدس من وصف الطبيعة والافتتان فيها

---

(١) النمل — ٦١ —
(٢) القمر — ١٨ حتى ٢٠ — (٤) سبأ — ١٢ —
(٣) الانبياء — ٧٨ حتى ٨١ —

فأولئك كانوا يصفونها حبا لها وتعلقا بها ، واقبالا "عليها ، أما القرآن فقد جعلها أداة طيعة لنشر عقيدة ، وبسط حكمة ، واحقاق حق ، وهذا يجعل البون بعيدا بين طبيعة وطبيعة ، لأن ماهية كل منهما تختلف كل الاختلاف عن نظيرتها في الطرف الثاني ، ولا موضع للمقارنة أو الموازنة .

كما أنني ذكرت في فصل (الطبيعة في الشعر الجاهلي) أن الشعراء كانوا يعنون بالجزئيات الطبيعية ، ولا يحاولون أن يقيموا وحدة شاملة للكون كله ، لأنهم يتأثرون البيئة ويصدرون عن الحياة البدوية التي تحيط بهم ، فهل يعني ما فعلته هنا من تجزئة الطبيعة والحديث عن كل عنصر مستقلا عن غيره ، أن القرآن كان يتبع السبيل نفسها ويسلك النهج ذاته ؟

الواقع ان القرآن الكريم ينوع العرض ، فتراه احيانا يجمع الكون كله في لوحة واحدة كما في سورة البقرة [1] ، وتراه احيانا أخرى يصف عنصرا واحدا يشخصه ويجسمه في كثير من صوره وآيه ، وفي هذا دليل واضح على ان القرآن لم يكن ذا طريقة واحدة مرسومة في العرض والتمثيل ، ينهج ما يلائم الموضوع ويوائم السياق .

---

(١) ١٦٥

صور ادب الطبيعة بين الآيات المكية والآيات المدنية

حول تقسيم القرآن الى مكي ومدني :

لقي هذا الكتاب العظيم من عناية أتباعه ما لم يلقه أي أثر آخر في الوجود فلم يتركوا ناحية من نواحيه الثرة إلا أشبعوها دراسة وبحثا ، وعمقا في الاستقصاء والتتبع . حتى بلغ بهم الأمر أن عرفوا أوقات نزول آية في الليل أو في النهار ، في ضاحية أو في مدينة ، في بيت المقدس أو ساحات مكة ، في الطائف أو يثرب ، عرفوا كل هذا ، بل زادوا على ذلك عرفانهم ما نزل مجملا " وما نزل مفسرا ، وما حمل من مكة الى المدينة ، وما حمل من المدينة الى مكة ، وما حمل من المدينة الى أرض الحبشة بل لقد اشترط النحوي المعروف أبو القاسم الحسن ابن محمد بن حبيب الينسابوري في كتابه القيم ((البرهان)) على من يريد أن يتكلم في كتاب الله خمسة وعشرين شرطا منها هذه التي ذكرت (١) .

وبحثنا هذا لن يتناول مسألة المكي والمدني على أنها بحث خاص ، وانما الذي يهمه منها هو ما يتعلق بحرارة الأسلوب ، وقوة التعبير ، وطريقة الأداء فالمعروف الشائع لدى الدارسين في القرآن الكريم أن اسلوب الآيات في مكة أقوى عبارة ، وأفخم لفظا ، وأشد متنا منه في الآيات المدنية ، وربما كانت هذه الفكره على جانب كبير من التعميم ، ولكنها تحمل في الواقع حقيقة أولية لا يمكن التجاوز عنها أو اغفالها .

والواقع أننا نجد أحيانا في الآيات المدنية ما يشابه الآيات المكية في كل سماتها وطوابعها ، كما أننا نجد آيات مكية يشيع فيها الهدوء ، وتغشاها الجمل الطويلة ، ذات الاسلوب القصصي أو التقريري البعيد عن الخطابة كل البعد على غرار سورة يوسف مثلا " .

وقد ذهب المستشرق نولدكه في ذلك مذهبا آخر (٢) فجعل القرآن في مكة أقساما ثلاثة ، نزل أولها في بدء الدعوة ، فكان قوي الاسلوب ، متين العبارة

---

(١) راجع في ذلك البرهان . الجزء الأول ١٩٢ ، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي ، الجزء الأول ص ٢١-٣ ، ومباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح ١٦٥ ومناهل العرفان للشيخ الزرقاني بحث ((المكي والمدني))

(٢) انظر البحث القيم الذي كتبه الدكتور صبحي الصالح في كتابة ((مباحث في علوم القرآن عن موقف المستشرقين من الكتاب المقدس

قصير الجمل ، يكثر القسم باجزاء الطبيعة وعناصرها ، ونزل ثانيها بعد هذا فكان على حرارة أسلوبه أضعف مما قبله ، وبدأنا نجد — كما يقول بعض الهدؤ يشمل آية أما الثالث فهو قريب كل القرب من الأسلوب المدني ، تطول فيه الجمل ، وتخف فيه الحرارة ، وتسرد قصص الأنبياء بشكل مطول بينما كانت في البدء يشار اليها إشارة عابرة .

ولقد جهد المستشرقون قبل " نولد كه " وبعده في التقسيم بين المكي والمدني من القرآن ولكن جهودهم ما كانت تعود الا " بالاخفاق ، ولا تكلل الا " بالأخطاء الفادحة وما استطاعوا أن يقنعوا أنفسهم بما يبتدعون من تقسيمات ، وما يخترعون من مناهج لها وتبقى مباحث قدمائنا سيدة الميدان ، لأنهم كانوا يعيشون هذا القرآن في قلوبهم وعقولهم وكيانهم كله ، فهم حين يكتبون عنه ، يستلهمون تاريخهم الذى ألّموا به كل الالمام ، ويستلهمون بعد ذلك عواطف متعلقة بهذا الكتاب الذى تؤدى بهم خدمته الى جنة عرضها السموات والأرض .

ولعلنا لا نحتاج الى كل هذا الحرج في التقسيم والترتيب ، فنحن نعرف من التاريخ أن القرآن في مكة كان يخاطب قوما محاربين أقوياء ، أولي بلاغة في الخطابة وفقه في الشعر ، كما أنه كان يقوّي من عزائم مؤمنين أقلة ، يبث في نفوسهم الصبر وينشر في قلوبهم الاطمئنان ، حتى اذا كانت الهجرة ، أنتقل المسلمون من ضعف الى قوة ، ومن ذل الى عز ، ومن عيش خفيض الى حياة هنيئة ، وبرز هنا عدو جديد ، لا يحارب عن عصبية كما فعل مشركو مكة ، ولا يدافع عن نعرة كأولئك ، وانما له عدة ، وعنده كتاب ، وفي كتابه أسئلة كثار ، وفي نفسه علم غزير ، ولديه بعد هذا حجج تقدم ، وبراهين تساق .

هذا العدو هو هؤلاء اليهود المنتشرون ، في أرباض يثرب وضواحيها ، فاذا قارعهم القرآن الكريم ، فلن يستعمل معهم أسلوبا كان يخاطب به عرب مكة وفجارها ولهذا نرى في السور التي تخاطبهم أو تتحدث عنهم أسلوبا منطقيا طويل الجمل هادئ العبارة ، ولكن هذا لا يجعل الأسلوب المدني كله على هذا الغرار ، فهو حين يخاطب المشركين من يثرب يخاطبهم باسلوب عرفناه في الآيات المكية ، ومن هنا كان قدماؤنا رحمة الله عليهم ، يذكرون أن في سور المدنية ما يشابه سور مكة في جوها العام وسياقها المطرد .

ومهما يكن من شيء فان التقسيم الزمني للآثار الأدبية لا يعطي الفكرة الأخيرة ولا يقدم النتيجة المحتمة ، وان الهزات السياسية ، والانقلابات الفكرية لا تستطيع أن تمتد الى الأدب امتدادا سريعا ، ولنا في أدبنا العربي مثال واضح وبرهان بارز ، فقد قام الاسلام في جزيرة العرب ، ووضع بين أيديهم كتابه السماوي وغير من طبائعهم ماغير ، ولكنه ترك الشعر على ماهو عليه ، في نهجه الذي ينهج ، وتعبيره الذي يسلك ، وأخيلته التي يتخيل ، ثم كان العصر الأموي فعاد بالشعر الى الوراء ولم يدفعه الى الأمام ، فالزمن مازالت رِمَنا ، والأطلال مافتئت أطلالا والمهاجاة ماتغيرت ولا تبدلت في نسجها وخيوطها ، ثم جاء العصر العباسي عصرُ العلم والترجمة والحضارة ، فما خلف وراءه الا محاولات قام بها مخمور كأبي نواس ومعقد كأبي تمام ، وهي مع كل هذا لا أهمية لها في عالم التجديد والتبديل .

وقد نجد رقة في الاسلوب ، ومدنية في المعاني ، ولكن ذلك لم يأت فجأة وانما كان نتيجة مئات من السنين .

والقرآن قمة شامخة لا تسري عليها قوانين الأدب ، فهو لا يتأثر بالمؤثرات الخارجية على غرار الشعر والنثر ، ولكنه يعرف كيف يغير طريقة الأداء ، ويعرف من يخاطب وكيف يخاطبه ، ثم لا أثر لمكة أو للمدينة في تغيير أسلوبه وتبديل جمله .

فهل تغير أدب الطبيعة في المدنية عما كان عليه في مكة ؟ وهل عادت الطبيعة حدائق خضراء ، وجنات زهرا ، بعد أن كانت جبلا يدك وبحرا يسجر ؟ وهل تحول الأسلوب الذي تساق فيه الصور الطبيعية من القوة والعنف الى اللين والهدوء ؟ ... هذا ماسأوضحه فيما يلي من الصفحات ،

صور الطبيعة وأدبها بين مكة والمدينة :

ولعلّ هذا العنصر الجزئي في القرآن ، خير دليل على أن الاسلوب الالهي ماتغير ولا تبدل في المدينة عما كان عليه في أم القرى ، فها هي ذي عناصر الطبيعة تعرض هنا كما عرضت هناك ، وها هو ذا الأسلوب يجري في ماء واحد ، عذب سلسبيل ، لم يخلف طعمه ، ولم يتغير مذاقه ، فان أنت أخذت صور الجبال أو الانهار ، أو الشمس والقمر أو أي عنصر آخر ، ثم رحت تستخرج الفوارق بين عرضها في مكة ، وعرضها في يثرب ، فانك لن تجد شيئا يذكر ، اللهم الا فروقا طفيفة سأتعرض لها بعد قليل .

وربما خطر لك للنظرة الأولى أن صور الرهبة والقوة في مشاهد القيامة تزدحم في آيات مكية ، وتكاد تخلو منها آيات المدنية ، وربما ظننت في البدء أن عناصر الطبيعة المتجهمة انما سيقت في العصور الأولى لنزول القرآن ، لترهب كفرة بها جحدة لها ، حتى اذا انتقل المسلمون الى المدينة ، أخذ هذا التجهم يخفف من غلوائه ، ويقلل من شدته ، وأخذ يهدأ رويدا رويدا حتى عاد صفاء الشاطيء عن تلاطم الأمواج ، وترنم الجدول عن صخب الشلال . . .

ربما خطر لك هذا في أول الأمر — ولكنك بعد أن تمعن النظر وتطيل التأمل تجد أن هذا يحتاج الى كثير من التخفيف والتقليل ، وتضطر الى تغيير كثير من هذه الآراء (١) .

ولعلّ الشيء الهام في هذه الفوارق هو كثرة القَسَم بها في قرآن مكة ولهذا قيمة في هذا المجال ، لأن للقسم دلالته العظمى على المقسم به ، ويزداد هذا وضوحا اذا نحن عدنا الى الشعر الجاهلي ، ففيه يكثر القسم بالأب والجد وقلما نجد شاعرا جاهليا يقسم بالليل الساجي ، أو بالضحى المشرق أو بالرياح الذاريات ، أو بالغمام الذي يحمل الى الأرض القاحلة ، غذاء الحياة ، فقليل من الشعراء من كان يقسم بالراقصات على الوَجِل من الأبل (٢) ، كما أقسم القرآن بالعاديات من الخيل ، وأقام جوا رهيبا من الغبار ، والشور المتطاير من حوافر الخيل .

ولكن ماهي دلائل القسم في هذا المجال ؟ أهو ضرب من تقديس الطبيعة أم هو لون من الامتزاج فيها على غرار ما نشاهد عند الرومانتيكيين من الشعراء ؟

الواقع أن الطبيعة ماكان لها أن تقدس في القرآن ، ولا أن يُمتَزَج بها فهي عظيمة جدا ولكنّ من يسوق صورها لا تعدل عظمته عظمة ، فستكون اذاً مخلوقة كسائر المخلوقات ، يضخم حجمها ، ويكبر جرمها ، وتعظم دلالتها على رب خلاق عظيم مبدع عجيب الابداع والصنع .

فليس لهذا أقسم بها في السور الأولى من القرآن الكريم ، وانما لأن العرب

---

(١) انظر فصل " أغراض ورود صور الطبيعة في القرآن " من هذه الرسالة

(٢) كما فعل النابغة الذبياني .

جماعـــــــة صحراء ، وأرباب بادية ، تحيط بهم الجبال ، وتحدق بهم الهضاب فهم والطبيعة أنداد ، يبصرون فيها مع الصبح جمال الأشـــراق ، وبهاء اللمعـــان ويقاسون منها مع الظهيرة ، حرا لها جرة ، ووقدة القيظ ، ويتملون فيها مع المســـاء شحوب الغروب ، واغفاء النور ، ويطالعهم منها في الليل ، شـــدة الظلام ، وحلكـــة الدجى . . . فهم أبناء الطبيعة في تفكيرهم ، تملأ نفوسهم وقلوبهم ، ولكنهم مـــع هذا كله لا يرتفعون بأنظارهم الى مافوقها ، ولا يستوحون قلوبهم عما بعدها بـــل يعيشون في واقعهم المادى لا يسألون من خلق هذا كله ، ولا يستشعرون منـــه قوة الخالق ، وقدرة الجبار .

ومن هنا جاء القسم بها ، ليدعوهم الى التفكير بها ، والتأمل فيها ، وليسألوا أنفســـهم عن عظمة خالقها ، وقدرة باريها .

على أن هذا غـرض واحد من أغـراضه لا كلها ، فالقرآن يقسم بها أحيانـــا ليعلمهم شيئا جديدا ، أو ليمن عليهم بنعمة ، أو ليدل على وجود الله وعظيـــم قدرته ، أو ليرهبهم بها ، وهو حين يســـوق هذا كله يجعل القسم ملائما لما سيأتي في جوابـــه ، فهو في ســـورة العاديات يقسم بهذا الجو الرهيب كما تقدم ، فيخلق عالما صاخبا ، يتطاير فيه الغبار ، وتعدو فيه الخيل ، وتسمع فيه الأنفاس ، ويتطاير فيه الشـــرر ، ((والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا)) لقد فعل ذلك لأن الجواب قاس وشديد ومتجهم ، فهذا الانسان جاحد للنعمة ، كافر بالفضـــل طامع في المال ، ان الانسان لربه لكنـــود وانـــه على ذلك لشـــهيد ، وانه لحب الخير لشـــديد .

ولكنك تجد في مكان آخـــر ، قسما بالطبيعة الضاحكة الحلوة الهادئـــة الســـاجية ، فلا تكاد تترك جمل القســـم حتى ترى جوابه هادئا مثلها ، يحمل آيـــات النعمة ، ويبث جواء الرحمة ، على غـــرار ماتشاهد في سورة الضحـــى (١) ((والليل اذا ســـجا ، ماودعك ربك وماقـــلا وللآخـــرة خير لك من الأولى ، ولســـوف يعطيـــك ربك فترضى ، ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا " فهدى ، ووجدك عائـــلا " فأغنـــى فأما اليتيم فـــلا تقهر ، وأمـــا الســـائل فلا تنهـــر وأما بنعمة ربك فحدث .))

---

(١) اقتبست هذه الفكرة من كتاب التصوير الفني في القرآن لسيد قطب مع تحوير وتغيير فيها

كل هذا تحمله السور المكية ، وتخلو منها سوريثرب ، أقنع العرب بهذا القدر من لفت أنظارهم الى ماوراء الطبيعة ، وحملهم على التفكير في أجزائها وعناصرها أم أن القرآن الكريم أتخذ لهذا سبيلا" آخر ، وسلك له مسلكا جديدا ؟

الواقع أن الدعوة الى التأمل في الكون وعجائبه ماانفكت قوية في المدنية قوتها في مكة ، فهذه سورة البقرة ، وسورة آل عمران وهما مدنيتان ، تحمل آياتهما من هذا اللون أشياء كثيرة ((ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس ، وماأنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون (١) .

وفي سورة آل عمران تعبير مثل هذا التعبير وصورة مثل هذه الصورة إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلا" ، سبحانك)) وهذه هي سورة الرعد المدنية أيضا ((وهوالذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل والنهار ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقي بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، ان في ذلك لقوم يعقلون .))

بهذا الجو الشامل الكامل يدعى الناس الى التأمل في الطبيعة ، والتفكير فيما تحمل من دلائل الألوهية وعظمتها ، كما كانوا يدعون في مكة بطريقة كهذه الطريقة ، أو بلون آخر من التعبير والعرض ، فمما جاء مشابها لها في مكة قوله تعالى في سورة النمل ((أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، وما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون ، أم من جعل الأرض قرارا" وجعل خلالها أنهارا" ، وجعل لها رواسي ، وجعل بين البحرين حاجزا" ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون (٢)))

---

(١) البقرة (١٦٥)

(٢) النمل ٦٠ — ٦٢

((وأوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ، ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات ، فاسلكي سبل ربك ذللا" يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ، فيه شفاء للناس ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (١))) .

أما صور الجنة والنار فهي في المدنية تتخذ لونين اثنين ، في أولهما سمات مكة ، وفي ثانيهما طوابع جديدة ، نجد بعضها في أم القرى أيضا ، فقد تخلو من الصور الطبيعية خلوا" تاما كما في البقرة ((ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا ، وان الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار .)) وكذلك الأمر في آل عمران : ((يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون .)) .

صور القيامة هنا لا تروع مناظرها ، وانما يروع منها هذا التهديد الالهي وذلك الوعيد الرباني ، فليس فيها جبل يتهدم بعد انتصاب ، ولا نجوم تكدر بعد لمعان ، ولا شمس تكور بعد اشراق ، ولكن هذا ليس بالجديد في آيات المدنية ففي مكة من هذا كثير ، كما في سورة عبس ((يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شيء يغنيه ، ووجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة)) وسورة الأعلى : ((فذكر ان نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيا (٢))) .

التشابه هنا واضح ، فكلا النوعين يذكر العذاب أو النعيم مجردا من الصور الطبيعية المروعة ، فاذا قال في مكة عن وجوه أصحاب النار ((عليها غبرة ترهقها

---

(١) النحل ٦٨ — ٦٩ (٢) وتجد ذلك في سورتي التكاثر والنجم المكيتين

فترة)) فانه قال في المدنية ((اسودت وجوه)) واذا وصف وجوه الصالحين المنعمين في مكة بالاستبشار والضحك والوضوح فانه وصفها في المدنية بالبياض ، وهو عند العرب عظيم الدلالة على النقاء والصفاء والخلو من العيوب (١) كما أنك تلمح شبها آخر في عرض الصورتين هنا ، وعرضهما هناك ، للموازنة والاختبار .

وربما ظننت أن الأسلوب في آيات مكة تقصد جملة ، وتوجز عباراته وتحمل ألفاظه آنا نوعا من الايقاع الموسيقي الرتيب ، وآنا آخر ازّ ضربا من العنف والتقريع والقوة ((القارعة ، وماأدراك ماالقارعة ؟ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاويه ، وماأدراك ماهيه ؟ نار حاميه (٢))) .

ولكن هذا غير بعيد عن أسلوب القرآن الكريم في يثرب ، فهذه سورة الرحمن التي تعج بآيات قصار ، وتمتلئ بهذا التكرار الحافل بالقوة الذى يملأ السمع بقوة جرسه وموسيقاه ، وهذه هي سورة الانسان ، وسورة الزلزلة وكلتاهما مدنية ، ولا تقل عن سور مكة في قصر الجمل ، وقوة التعبير ، وتصوير نعيم السعداء ، وعذاب الأشقياء واذا تركنا صور الجنة والنار الى ماصور به الليل والنهار ، وأقمنا موازنة بين عرضها في مكة ، وعرضها هناك ، فاننا نزداد ايمانا بأن الأمر ماتغير ولا تبدل ، وان السياق الذى تجرى فيها الصور هو الذى يعين الظلال ، ويمد الخطوط ، ففي سورة الأنعام المكية تأتي هذه الآية ((وله ماسكن في الليل والنهار ، وهوالسميع العليم)) ويأتي أيضا ((وهوالذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ماجرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه)) وفي

---

(١) قال زهير يمدح حصن بن حذيفة :

وأبيض فياض يداه غمامة على معتفيه ماتغب فواضله

وقال طرفة بن العبد يفخر بندامه :

ندامى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد

(٢) أنظر للنوع الأول سورة "عبس" التي عرضت جزءا" منها ...

يونس المكية أيضا "((هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار مبصرا " ، إن في ذلك لقوم يسمعون)) ثم يأتي في المدنية من سورة الرعد ((وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسي وانهارا " ، ومن كل الثمرات زوجين اثنين ، يغشي الليل والنهار ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)) ويأتي كذلك في البقرة وآل عمران المدنيتين مثل هذه الآيات ((ان في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ..)) في كل هذه الآيات يستدل القرآن على وجود الله وقدرته وعظيم نعمته فلا يختلف الأسلوب ، ولا يتنوع العرض ، وانما يأتي بهذه الصبغة التقريرية واللباس الواضح .

هذه الموازنة الموجزة بين نصوص من المدنية وأخرى من مكة ، تبين ما ذهبت اليه في مطلع هذا البحث ، وبقي أن أقف عند شواهد أخرى من القرآن المدني لتبيان مافيها من روعة وجلال لم يفوتا القرآن في تصوير الطبيعة وفي أدبها بصورة عامة .

انظر الى هذه الصورة الرائعة التي شَبَّه بها المنافقين في سورة البقرة ((مثلهم كمثل الذى استوقد نارا " ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين ، يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا ، واذا أظلم عليهم قاموا (١)))

اذا تجاوزنا هذه التشبيهات الحسية المادية التي تحدثت عنها في فصل ٤ ، وجدنا تصويرا غير مباشر لا شعاع الأمل ، يعقبه خمود اليأس فهؤلاء المنافقون في حيرة من أمرهم ، لا يعرفون الطريق التي يسلكون ، تلوح لهم بوارق الايمان فينطلقون اليها ، ثم لا تلبث أن تتلاشى عنهم فيغمرون بالقنوط ، ولكن الناحية النفسية لا تساق بهذه الألفاظ المجردة ، التي لا قيمة لها في سوق الأدب بل تعبر عنها الصورة الطبيعية الحسية

والدقة في التصوير هنا إنما تكمن بهذا التنكير الذى يسرى في النص كله

---

(١) البقرة ١٧

((ظلمات ، صيب من السماء ، رعد ، برق)) ثم يعقبه تعريف بـ "ال" التي يسميها النحاة بأل العهدية ، العهد الذكرى ، ((يكاد البرق)) الذى مرّ ذكره قبل قليل منكراً ، ((يخطف أبصارهم)) .

وقد نضطر الى استعمال اصطلاحات علماء البلاغة في تحليل بعض النصوص ، ولكن لا لنجعله التعبير بالمنطق الفلسفي ، وانما لنتصور الغرض الذى يستشف من نص كهذا الذى نقرأ ، فهم يذكرون للتنكير فوائد كثيرة ، منها الابهام والغموض ، والتكثير والتقليل ، فما هو الغرض الذى نجده في هذه الآيات ؟

ليس من شك في أن الموقف مظلم مثجهم ، والغموض والتكثير كلا هما يلائم المعرض ، فاذا قال : ((فيه ظلمات ورعد وبرق)) مضى الخيال يتصور الكثافة التي يظنها في السحاب ، ويصيخ الى قصف الرعد الذى ينطلق منه ويحدق الى البرق الذى يتلامح أمامه ، ولكنه لن يهدأ خوفه ، ولن يطمئن قلبه ، لأن الطبيعة أمامه غضوب ثائرة ، تهدده بالموت الزؤام ، بقصفة صاعقة في جوف هذا الظلام .

انها آية مدنية ، ولكنها مليئة بالقوة ، وحافلة بالأسلوب المتوهج التصويرى لأن الموضوع الذى سيقت له قاتم معتم ، فلا تشرع لتنساب هادئة الجمل ، رخية الالفاظ ، ولا تقص رواية لتسلك الحوار القصصي ، وانما تصور لمحة نفسية من حياة فئة ظالمة من الناس ، لا يستسلمون لحكم الله ، ولا يذعنون لقضائه فيهم . فاذا وضعنا بجانبها سورة يوسف المكية ، وأقمنا موازنة سريعة بين أسلوبيهما ، رأينا الفكرة التي يذكرها بعض الدارسين ، والتي أشرت اليها كثيرا ، لا حقيقة لها البتة ذلك أن السورة المدنية هنا أقوى أسلوبا ، وأمتن تعبيرا ، وأصعب جوا من السورة المكية التي تسرد قصة يوسف عليه السلام .

والشواهد على ذلك كثيرة جدا ، ويكفي أن نتذكر بعض النصوص التي وقفت عندها في مواضع من هذه الرسالة ، ليزداد الدليل على ذلك قوة وتحقيقا (١) ولأسق اليك هذه الآية من سورة الحج المدنية ((ومن يشرك بالله ، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح في مكان سحيق (٢) . التشبيه هنا يشبه ما تقدم

---

(١) كوصف الطبيعة ((أو كظلمات في بحر لجي)) ، من سورة النور المدنية وانظر فصل أغراض ورود عناصر الطبيعة في القرآن)) وفصل ((عناصر الطبيعة كما يصورها القرآن)) .

(٢) الحج ٣١ .

في النص السابق من توضيح المعنويات بالمحسوسات ، فالشرك بالله انما هو سقوط في هاوية سحيقة ،وخطفا من جوارح الطير . ولكن هذا يعرض في مثل هذه الصورة القاسية الصلبة ، في مبناها وفي معناها على السواء ، ويكفي أن يسمع السامع ((خرّ)) التي تقطع تحت اللسان قطعا ، حتى يتخيل ذلك الجسم يخر سريعا الى الأرض ، واذا انتقل الى لفظ ((سحيق)) صور له هذا المد الطويل بُعْدَ غور الهاوية ، فاذا هو أمام سرعة خاطفة في السقوط وبعد غائر في المكان .

ولا يقف الابداع عند هذا الحد من التصوير ولكن الألفاظ هنا ذات وظيفة أخرى ، فلقد عبر في بدء الكلام بالفعل الماضي ، ليزيد الجو حركة واضطرابا وسرعة في السقوط ((خرّ)) ثم بدأ يتحدث بالفعل المضارع الذى يفيد المضي في الزمن ، ليضع المشهد أمام الناظر ، ويخيل اليه أن عملية السطف والهوىّ تجرى الآن أمام بصره ونظره ، وانها قصة الحاضر المشاهد لا الماضي البعيد .

تلك سورة مدنية ، ولكنها في قوة وصخب واضحين ، لأن المشبه به قاس جدا هو شرك بالله ، وكفر بفضله ، وأظن أن هذين النصين يكفيان لتحقيق الغرض المقصود من هذا الفصل ،مع الاشارة الى نصوص أخرى مرت في أماكن كثيرة من هذه الرسالة كلها مدنية النزول ، ولكنها لا تقل عن المكية صخبا وعنفوانا .

على أن ثمة ملاحظة ينبغي ألاّ تخفى ، وهي أن السور الأولى من القسم المكي ، يحمل خلا فا واضحا ، وسمة مميزة عن غيره من سور القرآن المكية منها والمدنية على السواء ، وقد أكثر في تعليل هذا الباحثون والدارسون ، فذهبوا في ذلك الى ربطه بالبيئة والمجتمع والناس الذين يخاطبهم القرآن الكريم ، وفي هذا صواب لا يخطيء ، وحقيقة لا ترد ،

ونحن نجد هنا صور الطبيعة تمر خاطفة سريعة ، لا تكاد تلمحها العين حتى تترك العقل وراءها في تأمل وفي تفكير ، فاذا ذكر الجبال أوجز في الذكر حتى لا يعدو الكليمات ، ولكنه يكثف الألفاظ حولها حتى تثير في النفس خشوعا وعاطفة .

ويكفي أن تنظر في سورة المزّمل — السورة الثالثة من التنزيل — تجد مصداق هذا فهو يقول ((إن لدينا أنكالا وجحيما ، وطعاما ذا غصّة وعذابا أليما يوم ترجف الأرض والجبال ،وكانت الجبال كثيبا مهيلا)) . .

الصورة هنا شاخصة في كلمتين ((ترجف الأرض)) ولكن العقل يهيم في

تصوير هذه الرجفة الهائلة ، ولن يقف قبل أن يطوف بالقارات السحيقة وما فيها من جبال وأنهار وحدائق ، ويتصور مصرع الانسان الذى كفر النعمة ، وجحد الفضل وقل مثل ذلك في التعبير الآخر عن الجبال ، فهو يكتفي بالواو العاطفة فلا يكرر الفعل العامل في الرفع وكذلك التزييل الموجز ((وكانت الجبال كثيبا مهيلا " .))

وفي هذه السورة نفسها توجز عبارة أخرى حيث يقول تعالى ((فكيف تتقون إن كفرتم — يوما يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به ، كان وعده مفعولا)) أترى كلمة أوجز وتعبيرا أقرب من هذا الذى يسوقه القرآن بهاتين الكلمتين ((السماء منفطر به)) ؟ ولكن أمن الممكن أن يقف الانسان عند هذا دون أن يفكر بالطبيعة وقد تشققت سماؤها ، وانفطرت فوقه ؟ وهل يستطيع سامع أن تطرق سمعيه هاتان الكلمتان ثم لا توحيان اليه إيحاءات بعيدة فتنقله الى حيث يشخص ببصره ، ليستجلي السماء المنفطرة والطبيعة المتداعية ؟

وخلاصة هذا البحث أن أدب الطبيعة في مكة لا يختلف عنه في المدينة إذا نحن استثنينا السور الأولى ، إلا بأشياء دقيقة لا تكاد تبين ، ولعل بحث الطبيعة هذا يظهر أن ما ذهب اليه كثير من المستشرقين في تجزئة الأسلوب القرآني الى أقسام أربعة كما فعل ((نولدكه)) ومن تبعه منهم انما هو ضرب من التحكم الذى يحتاج الى مناقشة وتروّ وطول تأمل .

× × ×

أغـــراض ورودها في القرآن الكريـــــــم

— ١ —

وهذا الابداع في تصوير الطبيعة لم يكن يقصد لذاته ، ولا كان القرآن الكريم يســـوق هذه المشاهد ليجلوها للناس ، أوليأخذهم بجمالها وفتنتها : فهنـــاك صور عابسة متجهمة ، بينها وبين الجمال آفاق ومسافات ، وانما كانت لها في ســـياق القرآن مقاصد وغايات ، وكان لها دور تؤديه ثم تنسحب من المسرح ، بعد أن تترك النفس عالقة بمشاهدها الجميلة ، أوصورها المخيفة ، وتدع العقل يفكر في دقة خلقها واحكام صفها ، وتبسط أمام التأمل آفاقا رحابا ليغرق في سبحاته ، ويستغـــرق فـــي تأملـه .

على أن هذا الدور الثانوى ، يمر في القرآن الكريم ، فاذا النفس مدركـــة ماوراءه من غايات ، عارفة مابعده من أهداف ، شاعرة بملء جوارحها أن هذه المفاتن الطبيعية في جمالها الفتان ، وسحرها الأخاذ ، في قوتها وجبروتها وجلالهـــا وضخامتها ، في عجيب إبداعها ودقيق صنعها ، دليل واضح على وجود الله ، وبرهان جلـــيّ على قدرته ، وتصوير بارز لعظمته وقوته .

فالغرض الأول الذى تساق له مشاهد الطبيعة ، وتذكر لأجله عناصرها ، هـــو عرفان الله جل شـــأنه ((ألم تر الى الذى حاج ابراهيم في ربـه ، أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم : ربي الذى يحي ويميت ، قال : أنا أحيي وأميت ، قال ابراهيـــم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين (١))) .

نجد هنا دليـلاً قاطعا يساق بهذا الأسلوب الحوارى بين ابراهيم عليـــــه الســـــلام وبين خصمه الذى يجادله في ربـه ، وانا لنلمح النبي الكريم يحـــاول أن يفحم مجادله دفعة واحدة ، فيقفه أمام قدرة الله على احياء الموتى ، ولكنه لا ينال منه شيئا ، ونكاد نلمحه في ثوب من التعجب والدهشة أمام ادعاء خصمه الذى يكابـــر ويعاند ، فاذا به يقفز قفزة أخـرى يصل بها الى الشمس ، بل الى نظام الكون كلـــه فالله – جل وعـلا – ((يأتي بالشمس من المشرق)) فليأت المكابر المعاند بهـــا من المغرب ، وليغير نظام الكون ان كان يستطيع . . وهنا يبلغ ابراهيم الحنيف مايريـــد

---

(١) البقـــرة ٢٥٩ .

ويستخذى ((الذى كفر)) وتتضاءل نفسه أمام عظمة الكون ودقة نظامه ، وجبـــروت الخالق المبدع .

((قل لمن ما في السموات والأرض ؟ قل لله ، كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون (١))) ((قل أغير الله أتخذ وليا ، فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل اني أمرت أن أكون أول من أســـلم ، ولا تكونن من المشركين (٢))) .

ماذا ترى هنا ؟ انك أمام رب يخضع له من في السماوات والأرض لأنهم ملكـــه وعبيده ، وهو قادر على تعذيب المسيء ، واثابة المحسن ، وهل ثمة من يتخذ وليـــا غيره ، وهو الذى رفع هذه السماء ، ومد هذه الأرض .

في هذه الآية تتجلى لنا تلك الصفات الالهية ، وهي تعبر تمام التعبير عـــن الغرض من صور الطبيعة ، وذكر عناصرها في القرآن الكريم ، فنحن في معرض اتخاذ الولي الذى يلاذ به ، ويركن اليه ، في معرض الدليل القاطع على عظمة الله وحسن اللجـــوء اليه ، فتســـاق لهذا كله صفات الهية ، ويقدم عليها كلها مايتجلى في الطبيعـــة ((فاطر السماوات والأرض)) . ثم تأتي صفات أخرى لتتم الحقيقة وتتجلى .

ثم أقـرأ هذه الآيات من سورة الملك ..

((الذى خلق سبع سموات طباقا ، ماترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور (٣))) .

اننا نجد في كل شاهد لونا جديدا من البرهان والحجة ، فالذى يشيع هنـــا هو روح التحدى الواضح ، ينساب في الآيات بقوة ، ليقف أخيرا أمام الحقيقة الجليـــة فهذه هي بدائع الله العظيم ، سموات سبع يرتفع بعضها فوق بعض ، وبدائع أخرى تملأ الكون الرحيب ، فقف أيها الانسان الجاحد المنكر ، قف أمام ما خلق الله ، لتجـــد الدقة في الصنع ، والاحكام في الخلق ، ولن ترى خللا يطالعك أو ثغرة تبدو لك .

وسنرى نوعا آخـر من البرهان في هـذه الآيات من سورة الواقعة :

((أفرأيتم ماتحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلناه حطامـــا

---

(١) الانعـــــام ١٢ .

(٢) الانعـــــام ١٤ .

(٣) الملـــــك ٣ .

فظلتم تفكهون ، انا لمغرمون ،بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ،أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ،أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ،نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم (١))) .

وأحب أن استبق الفصل الذى سأبحث فيه ((أسلوب العرض)) وأشير الى هذا اللون من التصوير الى الاستفهام الذى خرج عما وضع له — كما يقول البلاغيون — ثم الى النتيجة التي يقف عندها ليبدأ بعدها استفهام جديد ، ثم الى هذا الحديث الذى يشيع فيه الندم ، وتُرين عليه الكآبة المريرة ، دون أن يشار الى ذلك بفعل القول أو بما يرادفه ، ولكنك تسمع قولهم مباشرة ، وهم يردون ((انا لمغرمون بل نحن محرومون)) .

ومهما يكن من شيء ،فان عناصر ثلاثة تتخذ في هذه الآيات لتدل على الله وعلى نعمه التي لا تحصى ، هي الزرع والماء والنار ، وكلها له في حياة الانسان أثر بالغ الأهمية . . . نعمة من الله يسبغها ومنّة منه يمنها .

بمثل هذا الاسلوب الالهي تسرد أسماء عناصر الطبيعة أو تصور مفاتنها ، ولكن هذا الأسلوب لا يغفل عن ذكر مقصده منها ، وما شأنها ان لم تبرز قدرة الله من ورائها ، ولم يستشف المخاطبون قوته وعظمته .

ونحن هنا نقف عند ظاهرة نفسية دقيقة ،فالعرب الذين كانوا يعيشون في الصحراء المديدة ، كان أبرز عناصر الطبيعة عندهم ، وأقواها أثرا في نفوسهم وأكثرها جلالا " في صدورهم ،هي هذه السموات التي ينقلب البصر منها خاسئا وهو حسير ، وهذه الأرض العريضة التي تمتد أمامهم الى ملا نهاية ، ومن هنا وجدنا القرآن العظيم يجعل السموات والأرض أكثر العناصر الطبيعية استشهادا بهما على وجود الله ، وعظيم شأنه .

ولعلّ ذكر الشواهد هنا يضيق عنه المقام ، ولا يتسع له البحث لأن كل سورة قرآنية لا تكاد تخلو من هذا ، ولا تفوتك فيها الشواهد عليه .

— ٢ —

وتساق عناصر الطبيعة أيضا ليُشبّه بها الناس ، كافرهم ومؤمنهم ، فاذا الصورة

---

(٢) الواقعة

أو المشهد بارز الخطوط ، واضح الألوان ، تنطق فيه الحياة ، وتتحرك فيه الشخوص فاذا شبه حال الكافرين قال : ((مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه ، واذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، ان الله على كل شيء قدير (١))) .

((والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور (٢))) .

نحن هنا أمام طبيعة غضوب ، تضطرب فيها أمواج البحار ، ويركب بعضها بعضا ، أمام طبيعة تجهمت سماؤها وقصفت رعودها ، وخرت صواعقها ، ذلك مثل الذين كفروا واشركوا ، هم في نفوسهم تجهم والحاد ، فظهر لهم تجهم الطبيعة العاتي ، وهم في نفوسهم نوازع الشر وكوامن الفساد ، فبدا لهم من الطبيعة مثل مافيهم شرا وفسادا .

وفي هاتين الآيتين أربعة تشبيهات ، تكاد تكون ذات ملامح واحدة ومغزى واحد فالضالون أحيانا كهذا الذى يوقد النار ، فيأنس بالنور الذى تنشره ، وتقفز نفسه طربا به واطمئنانا اليه ، ثم لا يلبث أن يجد نفسه محاطا بظلام حالك ، صبه الله عليه بعد أن ظن النعمة خالدة ، والسعادة دائمة .

وتشبه الصورة الثانية الصورة الأولى في كثير من خطوطها ، فالضالون هنا ضائعون حائرون مرتجفون ، تنصب فوقهم الصواعق ، ويكاد يخطف أبصارهم البرق ، وهم مشفقون من الموت ، ويحاولون الذود عن أنفسهم ، فيضعون أصابعهم في آذانهم .. ويكمن الشبه بين الصورتين في تلك الأنوار التي تنطلق فيفرح بها هؤلاء ، وتتلاح أمامهم طيوف السعادة والفرح ، ثم يخيم الظلام فينعم فيهم اليأس ، وتتابعهم الحيرة والفزع .

---

(١) البقرة ١٧ .

(٢) النور ٣٨

حتى اذا وصلنا الى الصورة الثالثة ، وقفنا فيها ملاحظة واضحة ، هي هـذه التعابير غير المباشرة . فالسراب هنا رمز للخيبة والاخفاق ، يتراقص أمام الظمآن المتلهف فيسرع اليه وعلى وجهه علائم البشر ، وقسمات المغتبط ، ولكنه لا يكاد يدنو منه حتى يخيب الأمل ، ويتلاشى الرجاء .

ونحن نلمح هنا وجه الشبه قريبا كل القرب ، كما أننا نجد الترابط بين المشبه والمشبه به أقرب مما تقدم وأكثر وضوحا ، فالكفرة انما يخيل اليهم أن ما يقومون به من خير يكفيهم عملا وثوابا ، وان لم يؤمنوا بدين محمد (ص) ويتبعوه ، الا أنهم في الحقيقة واهمون ، فأعمالهم سراب خيالي لا ماء واقعي ، ولن ينتفعوا بما يعملون اذ ضلت قلوبهم ، وعميت أبصارهم ، وضاعت أعمالهم بعد هذا الكفر والضلال .

والصورة الرابعة رائعة وعجيبة ، فهي معتمة قاتمة ، تمتد فيها طبقات من الظلام المتجانسة : لجج يغشاها موج ، وفوق هذا الموج المظلم موج آخر وفوق هذه الطبقات الثلاث سحاب أدكن معتم ، يصل ما ارتفع من الفضاء بما انخفض من سطح البحر وهكذا نعيش في ظلام دامس حالك ، مطبق بعضه على بعض ، ثم يبلغ التصوير ذروته حين نصل الى قوله تعالى ((اذا أخرج يده لم يكد يراها)) .

وفي هذه الصور الأربع يتضح لنا شيء هام ، هو هذه العناصر الحسية في مواد التشبيه ، توضح أشياء معنوية هي أعمال الضالين أو آمالهم فيما يقدمونه من خير ولطالما لا نجد في هذه الملاحظة شيئا جديدا اذا تذكرنا الشعر الجاهلي ، وبخاصة عند زهير بن أبي سلمى — ففيه من ذلك كثير ، ولعل صور الحرب ومكروهاتها لا تكاد تخفى على متأدب بسيط ، حين شبهت بالرحى آنا ، وبالناقة الولود آنا آخر ، وما تفعله القرى الزراعية في العراق ثالثة ، وقد ازدحمت في ذلك الصور المادية وركب بعضها بعضا ولكن الخلاف بين النوعين من الحسية — في القرآن وفي الشعر — هو أن معظم ما نعرفه عند الجاهليين متأثر بالبيئة ، لا يزيد على عناصر بدوية من رحى تحرك ، وناقة تحج ، وقرى تغل ، بينما يرتفع القرآن فوق البيئة ، ليأتي بأشياء جديدة ، تكون أكثر شمولا ، وأقوى مطابقة بين عنصري التشبيه .

واذا اتخذنا أبيات زهير في الحرب نموذجا للتشبيه الحسي عند الجاهليين وجدنا فارقا آخر بين القرآن والشعر وهو أن القرآن يرتب تشبيهاته ترتيبا هادئا يتوالى بعضها في اثر بعض ، دون أن يقطعها قطعا ، ودون أن يتركها ناقصة

أو مزد حمة متراكبة كما عند زهير .

ورابط آخر يربط هذه التشبيهات الأربعة في الآيتين الكريمتين ، هو مايشعره القارىء من ظلال الله وراءها ، فهوالمحور الذى تدور عليه ، والنتيجة التي تهدف اليها ، فالله هو الذى يطفيء النور في التشبيه الأول ، وهو الذى يذهب بأبصارهم اذا شاء في الثاني ، والظامىء المتلهف يدنو من السراب فيجد الله عنده في الثالث ، وفي الرابع ترتسم الظلمات وتتراكم ، ثم تُذيّل الآية بهذه العبارة ((ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)) فالتشابيه الأربعة ترتبط بخطوط واحدة في المعنى والهدف وان تنوعت الصور ، وتغيرت اللوحات ، وكيف لايكون ذلك والمشبه واحد يدور حول الضالين أنفسهم ، أو أعمالهم التي يعملون .

وربما شبه الكافرون بصور حقيرة من الطبيعة ، فاختيرت لهم صور الحيوانات في حال تمقت فيها وتزدرى ، كالذى أتته آيات الله فانسلخ منها ((فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (١))) .

ولهؤلاء في الحياة أعمال ، ولهم فيها مآرب ، وهم يزعمون أن أعمالهم هذه ذات نفع لهم اذا كانت الآخرة ، واذا وقفوا يوم القيامة مع الواقفين ، ولكن ((مثل الذين كفروا بربهم ، أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، لايقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد (٢))) ((ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، لايؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدا ، لايقدرون على شيء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين . (٣))) .

ثم تنتقل الى ماشبه به المؤمنون من مناظر الطبيعة ، فتجدك أمام رواب خضر وجنات وارفة الظلال ، باركها الله ، وتنزلت منها الملائكة ، وسقاها الغيث ، ((ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل

---

(١) الأعراف ١٧٦ .

(٢) ابراهيم ١٨ .

(٣) البقرة ٢٦٤ .

فأنت أكلها ضعفين ،فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير (١))) .

أو تجدك أمام حياة تدب في النبات ،ولكنها سريعة خاطفة في سريانها لا يكاد بصرك يلاحقها في مراحل النمو ((محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ،تراهم ركعا سجدا ،يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل ، كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع (٢))) .

ويجمع القرآن غالبا بين صورتين متقابلتين ، هنا صورة للشر ،وهناك صورة للخير ، ثم يترك المتأمل يقيم الفوارق ، ويشعر بها بعد أن يبعد المنظرين المختلفين ((ألم تر كيف ضرب الله مثلاً : كلمة طيبة كشجرة طيبة ،أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بأذن ربها ، ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار (٣))).

والتشبيه بمناظر الطبيعة كثير في القرآن ، فقد رأينا منه حتى الآن نموذجين أولهما للمشركين ، وثانيهما للمؤمنين الا أن ثمة نموذجا آخر طريفا حلوا ، هو ماتشبه به هذه الحياة التي يحياها البشر ، وتجدك هنا أمام مشهد واحد في ماهيته وجوهره ، لا يختلف في كل صور القرآن ولكنه متنوع في عرضه بحسب السياق الذي يقتضيه فتراه أحيانا شريطا طويلاً ينتقل من مرحلة الى أخرى متباطئا متثاقلاً كما جاء في سورة يونس : ((انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس (٤))) .فأنت هنا تبصر الغيث ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض ثم يشرح لك ماهو هذا النبات ثم تبصر الأرض تتزين ثم تبقى مدة طويلة ترى أهلها في ظنونهم وأوهامهم ثم اذا انت امام ضربة الله التي تجعل الأرض حصيدا كأن لم يغن زرعها بالأمس ، أما في سورة الكهف فترى شريطا قصيرا تجتزأ فيه المراحل ويعطف فيه بالفاء المفيدة للسرعة ((وأضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء

---

(١) البقرة ٢٦٥ .

(٢) محمد ٣٨ .

(٣) ابراهيم ٢٤ .

(٤) يونس ٢٤ .

فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح (١)) . فلم يذكر هنا شيء يفيد الامتداد كما ذكر هناك . والسبب في هذا هو السياق كما ذكرت ، ففي يونس نجد التفصيل في معظم المشاهد ، الطبيعية منها وغير الطبيعية فترى الله فيها يفصل خلق الأرض والسماوات تفصيلاً فيذكر الزمن ثم يذكر صنعه بعد الخير وتدبيره أمر المخلوقات ويغلب على الصورة جوّ الجدل الهادئ والنقاش ، وتطول الجمل ولهذا جاء مشهد الحياة طويلاً بالقدر الذي اريد منه ، أمّا في سورة الكهف فقد سبق هذه الصورة الطبيعية القصيرة جدل بين أثنين كافر ومؤمن وسيق على لسان أولّهما هذه العبارة ((وما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة)) ولهذا مرت الحياة بسرعة خاطفة في صورة الطبيعة لتبدو هلما زائلاً وشريطا جد قصير

— ٣ —

والغرض الثالث الذي سيقت له صور الطبيعية واجزاؤها هو ارهاب المشركين ووضعهم أمام يوم الحشر يبصرون أهواله ، وينظرون الى شدته ، فتلفحهم النار اللاهبة ، ويملا قلوبهم الفزع ، وتتعلق أبصارهم شاخصة بمنظر جبل يدك ، وأرض تزلزل وسماء تنفطر .

ونقف هنا على مميزة واضحة ، هي ان هذه المناظر تستعمل فيها الجمل الفعلية وبصورة خاصة الأفعال الماضية المفيدة للمستقبل ، لتزيد الجو حركة واضطرابا ، ولتحقق وقوع القيامة ، فلا يبقى أمل لأمل ، ولا منجاة لمنتظر .

وقد أحصيت ذلك في اثنتي عشرة سورة ، فوجدت أربعا منها يستعمل فيها الفعل المضارع ، هي الطور والمعارج والمزّمل والقارعة وواحدة فقط تستعمل فيها الجملة الاسمية في آية واحدة منها هي المزّمل .

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر في هذه الفقرة هي أن هذه الصور الكونية النابضة بالخوف والارهاق لا توجد الاّ في السور المكية ولم يذكر في المدنية

---

(١) الكهف ٤٥ .

منها الا في سورتين هما الرحمن ،والزلزلة اما اولا هما فأكتفي منها بهذه العبارة ((فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان)) ، واكتفي في الثانية بقوله : اذا زلزلت الارض زلزالها واخرجت الارض اثقالها ، وقال الانسان مالها ، يومئذ تحدث اخبارها ، بأن ربك اوحى لها .))

فالمشهد الكامل الذى نراه في السور المكية غير موجود هنا ، فلم يتحدث في الرحمن الا عن السماء كما لم يتحدث في الثانية الا عن الارض ، ولكنه في المكية من السور يجمع عناصر الكون كلها في مشهد واحد يرتجف ، ومنظر واحد مخيف ((اذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت واذا الجبال سيّرت واذا العشار عطلت واذا الوحوش حشرت واذا البحار سجرت واذا النفوس زوجت واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت واذا السحب نشرت واذا السماء كشطت واذا الجحيم سعرت واذا الجنة ازلفت .)) هذه صورة شاملة تريك اجزاء الكون في حال غضب وتظهرها قاتمة الالوان ، ملتهبة الجوانب وتصلك بالطبيعة كلها سمائها وارضها ، شمسها ونجومها ، جبالها الشاهقة وبحارها الزاخرة ، حيوانها الاليف ووحشها الكاسر ، ثم تنتقل بك الى نواح نفسية ، يراد منها تأديب القوم ومحاربة عادات جاهلية الفوها ،فالموءودة تسأل عن ذنبها الذى قتلت به وسحف الاعمال تفتح ليرى الانسان ماقدم من ذنب اواحسان ثم تسعر الجحيم ، وتزلف الجنة .

وكأن القرآن الكريم لا يكتفي بهذا الحشر الكامل لمعالم الطبيعة وانما يشيع فيها ضربا من التناسق والانسجام ، فهو يعرض اولا للمشاهد المادية الحسية ، ويملأ عناصرها بما يخيف ويفزع ، ويعرضها في صورها الهائلة المضطربة ، ويترك جوانبها الهادئة ، لان السياق لا يقتضي هدوءا في هذا المعرض ثم ينتقل الى ناحية نفسية يبغي منها تعليم الناس او ارهابهم ليكفوا عما هم فيه من آثام وضلال والانتقال نفسه ضرب من التناسق ، لان ما ارهب النفوس في القسم الاول جدير بأن يجعلها قابلة لاطراح ما يريد الله ،ولهذا انتقل بها هذا الانتقال بعد ان هزّ مشاعرها ، وحرك قلوبها .

الى هنا لم نجد صورة للجنة او للنار بل نرى تمهيدا اومقدمة ، ولكننا ندرك تماما ان السامعين المخاطبين قد بلغت قلوبهم الحناجر وانهم لا نوا

وخافوا ، فلتقدم لهم اذن صورة الجنة والنار بشكل غامض مبهم ، يزيدها غموضا هذا الايجاز الشديد بعد ذلك الاسهاب الواسع ((واذا الجحيم سعرت ، واذا الجنة أزلفت)) ولكن ماهي معالم الجنة ، وماهي ملامح النار ؟ كل هذا غير ظاهر ، لتبقى القلوب معلقة مرتهنة بهذا الابهام ، تطمع في نعيم لا تعرفه ولكنه عظيم ، وفي جحيم لا تدركه ولكنه مخيف (١) .

ثم تحمل هذه المشاهد معنى نفسيا رقيقا على مافيها من تجهم وخشونة ، فاولئك المستضعفون من صحابة رسول الله ((صلى الله عليه وسلم)) يعذبون ويهانون ، وتداس كرامتهم وهم صابرون ، حتى يأذن الله بالفرج ، فيتمخض الزمن عن ذليل عز ، وعزيز ذل فكانت هذه المناظر المرعبة التي تقدم لمشهد الحساب ، خير عزاء لهؤلاء الصابرين المنتظرين أنباء الغيب ، ودورة الزمن اذ يبصرون أعداءهم المتجبرين المستبدين من وراء السجف الشفافة من الغيب ، تطيح بهم هذه الرجفة الظلوم ، أو تهوى بهم الريح في مكان سحيق . أما في المدينة ، فلم يعد القرآن يخاطب هؤلاء ، انما بدأ يخاطب مؤمنين به مصدقين بالدين الذى يمثل ، فانتقل الى الصور الهادئة الشاملة وغابت عنا مقدمات هول القيامة من صور الطبيعة الغضوب .

وليس معنى هذا أن صور الطبيعة في مكة اختلفت عن صورها في المدينة من كل الجوانب ، أو أن أسلوب القرآن الكريم عاد في المدينة غيره في مكة ، كما يذكر كثير من الدارسين فهذه فكرة لا يثبتها الواقع ، ولا تحققها نصوص القرآن الكريم .

فنحن اذ عدنا الى سورة ((الزلزال)) المدينة ، نجد فيها قوة الأسلوب وعنفوان الخطاب ، وتجهم الصورة ، ولكننا لا نجد فيها الشمول الذى يضم عناصر الكون كلها في مشهد واحد ، على غرار ما رأينا في التكوير ، وهذا لا يدل على تبديل عرض صور الطبيعة كلها ، لأن جانبا واحدا لا يطغى على كل الجوانب .

واستطيع أن أفسر هذا بما فسرت به كثيرا من الظواهر الطبيعية . ولقد كان القرآن في المدينة يشرع في سور كثيرة ، حتى اذا اشتد وقوى ، ((فأمواج البحار الزاخرة كما يقول الرافعي رحمه الله (٢) ، ولا يقل قوة عن أسلوبه في مكة .

وتبقى ملاحظة واحدة بعد هذا ، هي أن المناظر لا تكاد تتغير في أغلب هذه المشاهد ، فتصور الجبال سرابا سائرا تارة ، وعهنا منفوشا أخرى ، وكثيبا مهيلا ثالثة وتصور الأرض مرتجفة مضطربة ، والسماء منفطرة متشققة . وربما صورت البحار مسجورة هائجة والنجوم متهدمة متناثرة ، وقد يعرض المشهد صورة بعض الحيوان في زحمة العراك الكوني كما فعل في سورة التكوير .

ويرجع هذا الضرب من التصوير الى أن المشهد واحد ، يصوره القرآن في أماكن

---

(١) انظر فصل ((صور الطبيعة كما يذكرها القرآن)) . (٢) في كتابه أعجاز القرآن المقدمة

كثيرة منه ، فيُسقط بعضا ، ويبقي بعضا آخر ومع هذا التكرار تجد انك كلما عدت الى المشهد تكشفت أمامك عناصر أدبية جديدة ، وبدت لك جوانب من الجمال لم تفطن اليها من قبل ، وكلما طالعت مشهدا منها ، حسبت أنك أمام شيء جديد ، لم تطلع على مثله في مكان آخر .

على أن هناك صورا أخرى تستعمل في مشاهد القيامة ، ولكنها تختلف كل الاختلاف عما قدمت ، صورا لها أغراض أخرى ، وتمثل أدوارا ثانية ، ومع ذلك ترتبط بالصور الأولى ارتباط النتيجة بالمقدمة ، فبعد أن ترجف الأرض ، وتسير الجبال ، وتنفطر السماء ، وتسجر البحار ، وتتناثر الكواكب ، بعد هذا تجد مناظر من الطبيعة ينعم فيها المؤمنون من عباد الله ، ومناظر أخرى يعذب فيها الكافرون من عُبّاد الشيطان ((ان يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا ، وفتحت السماء فكانت أبوابا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا ، ان جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، الا حميما وغساقا ، جزاء وفاقا ، وانهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شيء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا . ان للمتقين مفازا ، حدائق واعنابا ، وكواعب اترابا ، وكأسا دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، جزاء من ربك عطاء حسابا .))

على أن النوعين كليهما قد يجتمعان في مشهد واحد ، وقد يكتفى بأحدهما كما يقتضي الجو العام للسورة . أما المميزات التي تظهر في النوع الثاني منهما . فلن أتحدث عنه الآن ، لأن له مكانا خاصا حين نعرض لصور الجنة والنار (١) .

— ٤ —

ونحن نعلم أن الناس قديما كانوا يعبدون الشمس والقمر ، وكانوا يجدون في الأولى المها هو سبب الحياة لهم ولزروعهم ولحيواناتهم ، وللمؤرخين في ذلك أقوال وآراء فهم يجدون أن الانسان حين انتقل الى المرحلة الزراعية من مراحل عمره المديد ، صار ينظر الى هذا الجرم اللاهب من الطبيعة نظرة تقديس وأجلال وبدأ يشعر أنه مرتبط به ارتباط المخلوق بخالقه .

وقل مثل ذلك في القمر الجميل يبزغ في الليل البهيم فيحيله ضياء ويجعل له جمالا مشرقا ، وهمسا بهيا ، فاذا كان الانسان قد عبد الشمس لمنفعته المادية ، فانه عبد القمر لهذه المنفعة الروحية التي تتجلى في المتعة ، وتتوفر في البهائم .

والظاهر أن عبادة هذين العنصرين الكونيين ، بقيت لها آثار حتى ظهور الاسلام ، ولا يستبعد أن يكون لبعض القوم في جزيرة العرب نوع من العبادة يؤدونها لأحدهما ، ولهذا وجدنا القرآن الكريم يجاهد هذه الفكرة ، ويكافح هذه العبادة

---

(١) انظر فصل ((أجزاء الطبيعة كما يذكرها القرآن)) من هذه الرسالة .

ويتخذ في منافحته هذه طرقا شتى . فأحيانا يستعمل الطريقة المباشرة ، فيقفك منه لهجة خطابية ، فيها قوة وفيها حزم ، فيها تعنيف وفيها زجر ،فاذا الفعل المضارع واذا " لا " الناهية التي تفيد القوة والصرامة واذا فعل الامر يتلوهما مقررا" واضعا الحق في نصابه ، مرشدا الى حيث يجب ان يتوجه الانسان ((لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن (١))) .

ويستعمل احيانا طريقا غير مباشرة في رد هذا الاعتقاد ، ودحض هذه الديانة البشرية الوهمية ، فترى محور الحديث يدور حول الله الخالق العظيم ، وترى الشمس والقمر آيتين من آياته ، لهما في خلقه شؤون ، وفيهما لعباده منافع ، ((هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا ،وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب .)) .

ومن الطرق غير المباشرة التي يستعملها القرآن العظيم طريقة تعليمية في غاية الدقة ، نستعملها مع الاطفال ، لندخل في أذهانهم المعلومات التي نريد لهم .ولعل هؤلاء الذين يعبدون الشمس والقمر لم يرتفعوا الى مافوق الطفولة في تفكيرهم واتساع مداركهم ، ولهذا اتبعت معهم هذه الطريقة التعليمية القصصية ، تمثل أمامهم نبيا عظيما هو ابراهيم عليه السلام ، تمثله في دور التفكير يبحث عن الهه الحق ، فيزغ القمر ويخيل اليه أنه هو الاله المبحوث عنه ، ولكن ابراهيم لا يلبث أن ينفي ذلك حين يرى القمر يغيب وراء الأفق ، ثم تظهر الشمس فترى قسمات ابراهيم قد علاها البشر ، وتشعر أن قلبه يخفق بين جنبيه ، وتسمع له صيحة الفرح المغتبط ((هذا ربي ، هذا أكبر)) ولكنه يؤوب فارغ اليدين ، ويعود اليه اليأس المرير ، وتحس بالمرارة تتصاعد من لهاته وهو يقول : ((لئن لم يهدني ربي لأكونن من الضالين .)) ثم يرشد ابراهيم الى خالقه الحق ، فاطر السموات والأرض ، وخالق الشمس والقمر .

بهذه الطريقة التعليمية المبسطة ، نفى القرآن الكريم عبادة الشمس والقمر وبطريقة ناهية زاجرة حاربها أيضا ونافحها ، فكأنه المعلم الذى ينشيء تلاميذ له يأخذهم بالتبسط تارة ، وبالصرامة أخرى ، ويضع هذه حيث تجد ،ويستعمل تلك حيث تنبغي ، تقدير من عليم حكيم .

واذا كانت هذه الفقرة موضوعة لمحاربة عبادات قديمة ،فانها في الواقع أعمق معنى من هذا ،وأبعد غاية منه ، فهي لتطهير النفس من الخرافات ، وأبعاد العقل البشرى عن الزيغ . وفي ذلك سمو بالانسان الى حيث يجب أن يسمو ويرتفع .

وهي ترتبط كذلك بالله العلي القدير ، الخليق بالعبادة وحده ، الا" انها تختلف عما تقدم في الفقرة الأولى من هذا الفصل ، لأنها تتناول الموضوع من زاوية خاصة ، فهي تهدم عقيدة فاسدة لتبني أخرى طويلة ، وتحطم شركا خرافيا لتقيم وحدانية

---

(١) فصلت ٣٧

واقعية .

— ٥ —

ويبقى أمامنا من أغراض صور الطبيعة ، غرض يتم ما بدئ به ، ترى فيه عناصر الكون تستعمل للقضاء على الشر ، فالشجرة هنا لم تعد تلك النبتة الحلوة التي تلذ بها العين ، وينعم بها الفؤاد ، وانما هي زقوم يغص بها الجاحدون ، ويضطرب لها المارقون ، شجرة لاتكاد تستقر ثمرتها في الاحشاء بعد الغصة والالم ، حتى تفور وتصور ((كالمهل يغلي في البطون ، كغلي الحميم .))

والنجوم هنا لم تعد منائر تهدى في ظلمات البر والبحر ، ولم تعد مصابيح تزخرف السماء وتزين الطبيعة وانما هي رجوم من النار ، تنقض على الشياطين رمز الشر وعنوان الضلال ، فتحرق جموعهم ، وتمنعهم من الوصول الى حيث يسترقون السمع ويطلعون على الغيب .

والبحر كذلك تبدل بالمنفعة ضراً ، ولم يعد مسخرا ليأكل منه البشر لحما طريا أو ليخرجوا منه حلية يلبسونها ، ولم تعد السفن تمخر عبابه ، وانما عاد بحرا مزبدا تلاطم موجه ، واضطرب متنه ، فأغرق فرعون وجنوده ، وبدا للانسان الكافر بالنعمة ، الجاحد للفضل ، ظلاما قاتما ، وسوادا حالكا . . بدا له منظرا تميت رؤيته قبل أن تميت حيتانه ويودى مشهده قبل أن يودى غضبه واهواله .

وترى الريح هنا على غير ماكنت تراها في مواضع أخرى ، فهي لم تعد أداة خير اذ تسوق الغمام الى الأراضي الجرد ، فتبعث بها انتعاشا من ركود ، ونشاطا من خمول ، وحياة من موت وانما تراها هائجة ثائرة ، تقتلع الاشجار ، وتطيح بالجبابرة من آل عاد ، وتهوى بالكفور من مكان سحيق .

وللنار نصيب وافر هنا ، ومتى كانت النار تستعمل لغير القضاء على الكفرة ، أو تعذيب المذنبين من المؤمنين ؟ فانظر اليها كيف تستعر في البقرة ((ان الذين يكتمون ماأنزل الله من الكتاب ، ويشترون به ثمنا قليلاً ، أولئك مايأكلون في بطونهم الا النار .))

× × ×

هذه هي أغراض ورود عناصر الطبيعة ، وصور الكون في القرآن الكريم فلم تقصد لذاتها ولم يتطرق اليها الكلام السماوي الا ليؤدي بها غاية سامية وهدفا نبيلاً ولعل ماتقدم يكفي دليلاً على ماذكرت في مطلع هذا البحث ، من أن القرآن يتناول صور الطبيعة وغيرها من العناصر الأدبية أو العلمية تناولاً جانبيا — ان صح التعبير — ومع هذا لا يفوت بلاغته السامية أن تحلق في مستوى دونه البشر .

طريقة العـــــــــــرض

تبينا حتى الآن كل معالم الطبيعة في القرآن الكريم وتتبعنا كثيرا من الصور التي كانت تورد لمناسبات خاصة ولا سيّما الدينية منها وبقي علينا أن نرى الطريقة التي كانت تعرض فيها والأسلوب الذى تصاغ به .

ولعلي قد ذكرت فيما مضى ، كثيرا من هذا ، حين كنت أقف عند بعض النصوص وأحلّل بعض النماذج ، دون أن اشير اشارة واضحة الى أن القرآن نفسه في ذلك مناهج يتبعها ، وأساليب يقتفيها مما سأبينه هنا بشيء من التفصيل .

١" ـ الايجاز والاطناب :

الايجاز اسلوب مفضّل عند العرب ، كان ذلك في الجاهلية يوم كان النقد الأدبي ذاتيا انطباعيا ، وظلّ على نحو ما في الاسلام يوم وضعت أسس النقد ، وتوضحت مناهجه ، فنحن نرى بعض النقاد يفضلون بيتا على بيت لأنه يجمع معنيين اثنين بينما لا يحوى الثاني الاّ معنى واحدا" (١) .

ثم مالبثنا أن رأينا القوم ينهجون في ذلك نهجا صحيحا فيرون لكل من الايجاز والاطناب محلا" يحسن فيه وماعادوا يرتضون تفضيل أحدهما تفضيلا" مطلقا ، فهذا ابن قتيبة يرد على قول أبرويز الذى قال لكاتبه : ((واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول)) بقوله : ((وهذا ليس بمحمود في كل موضع ولا بمختار في كل كتاب بل لكلّ مقام مقال ولو كان الايجاز محمودا في كل الاحوال لجرده الله في القرآن ولم يفعل الله ذلك ، ولكنه أطال تارة للتوكيد وحذف تارة للايجاز وكرر تارة للافهام (٢))) .

وهذا هو أبو هلال العسكرى في ((كتاب الصناعتين)) يعقد لهما فصلين طويلين ناقلا" أخبارا عن الوزراء وأصحاب الأمر في الدولة الاسلامية في تفضيل الايجاز آنا والاطناب آنا آخر ثم يجعل من نفسه حكما معتدلا" حين يقول : ((والقول القصد أن الايجاز والاطناب يحتاج اليهما في جميع الكلام وكل نوع منه ، ولكلّ واحد منهما موضع ، فالحاجة الى الايجاز في موضعه كالحاجة الى الاطناب في مكانه (٣))) .

وهكذا نجد أنه كان لهذين اللونين من الاسلوب انصار ومحبذون الى أن استقر الأمر عند المعتدين فصار لكل مجال يقوم فيه ، ولا يستحسن نقيضه فما هي خطة القرآن في ذلك ؟

---

(١) انظر في ذلك الصناعتين لأبي هلال ص ١٧٣ : (٣) الصناعتين ص ١٩٠

(٢) ابن قتيبة أدب الكاتب ص ٩

ان أول ملاحظة نشاهدها في اسلوب العرض في القرآن الكريم هي الايجاز أحيانا ، حتى لتمرُّ الصور خاطفة لا تكاد تلمحها عين ، ويكتفى هنا بذكر العنصر الطبيعي ، ووضع صفة عامة شاملة ، لا تدل على جزئية خاصة ،أو عنصر واضح ، ففي سورة الأعلى نجد هذه الآيات في وصف النار ((فذكر ان نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الاشقى الذى يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيا (١))) فالنار هنا لا توصف ذلك الوصف المطول الذى نراه في اماكن اخرى من القرآن الكريم بل يكتفى بهذه الصفة العامة " الكبرى " ثم يراد الى وصف أهوالها وشدتها ومايقاسيه الشقي العاصي ، فلا تصور الجزئيات من سلاسل وزبانية ووديان سحيقة الغور ولا تضفى عليها تلك المسحة من التشخيص ، فلا هي تزفر ولا هي تمور وانما يبقى فيها المعذب بين الموت والحياة لا يموت فيرتاح ، ولا يحيا فيخلص .

وهذا نص آخر تصور فيه الجنة والنار تصويرا موجزا تقريريا على هذا الغرار ((ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ،ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير (٢))) ماهي ملامح النار والجنة هنا ؟ أمّا الأولى فجهنم المعذبة وكفى وأمّا الثانية فتجرى من تحتها الانهار ، ثم تنقطع الصورة ليكملها الخيال .

ولقد سبق لي أن ذكرت أن لهذا الغموض معنى نفسيا كبيرا في وصف النعيم والجحيم وانه يزيد في هول النار ليرجف العاتون المتجبرون ، ويزيد في نعيم الجنة ليبصر المعذبون المرهقون عذاب خصومهم ، ويأملون في النعيم المنتظر ولن أعيد ماذكرته فيما تقدم ولكني أتساءل : متى لجأ القرآن الى الايجاز ؟ وفي أى العناصر من الطبيعة كان يستعمله ؟ وهل أنتقل الى الاسهاب فجأة أم انه تدرج في الانتقال أم أن الاسهاب والايجاز كانا توأمين منذ نزل القرآن على قلب النبي (ص) في حراء الى أن انقطع عنه الوحي في رحاب يثرب ؟ وهذه فكرة تذكرنا بعقدة وقف عندها الدارسون الباحثون هي مسألة تاريخ النزول ، أفعرف الصحابة والقدماء تاريخ نزول كل آية فذكروه لنا بدقة وتفصيل أم أن كل مايذكره الباحثون في ذلك يحوم حوله الشك والتخمين ؟

ومهما يكن من شيء فان الكتب التي قامت بدراسات موسعة عن الكتاب السماوى استطاعت ان تستند الى روايات كثيرة — وان كان فيها اختلاف يسير — لتوضح تاريخ هذا النزول ، فكان لنا منه علم قرآني لا يختلف في دقته عن سائر علوم القرآن .

واذا تتبعنا السور الأولى ودققنا في طريقة العرض لمعنا الايجاز واضحا فيه كل الوضوح ، ففي سورة القلم وهي السورة الثانية يوصف العذاب يوم القيامة ، فلا تذكر النار ابدا وانما يذكر شيء معنوى مجرد ، وتغيب الناحية الحسية التي تطالعنا في

---

(١) الأعلى ٩ — ١٣ (٢) البروج ١٠ — ١١

صور كثيرة من الطبيعة في القرآن ((كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون (١))) . بهذه اللمحة الخاطفة يصور الهول ، وبتلك الصفة العامة " أكبر " ينعت العذاب ، ثم تغيب المشاهد التي سنجدها فيما بعد حافلة بالتصوير والالوان

وكذلك صورة الجنة في السورة نفسها تمر هذا المرور السريع اذ يقول ((ان للمتقين عند ربهم جنات نعيم (٢))) . هي جنات وفيها نعيم ثم لا شيء بعد هذا الشمول والايجاز . وفي السورة نفسها صورة غير طبيعية ، ولكنها تفيدنا في هذا البحث للموازنة وكشف الخصائص ، فمشهد العذاب في القيامة الذى سنجده بعد قليل يعتمد على الطبيعة الهائجة المضطربة ، لا وجود له في السورة الثانية من القرآن الكريم ، وانما يكتفى بذكر العذاب النفسي الصِرْف ، والمواقف المخزية للكافرين والعاصين ((يوم يكشف عن ساق ، ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون (٣))) . فالقوم هنا مكرهون على السجود وهم عاجزون عنه ، وكأن الخشوع الذى أبوه في حياتهم قادرين قد ران على ابصارهم أذلاء صاغرين ، وقد كُشِفَ عن ساق ، وجِدّ الامر ومهما يكن هذا العذاب من الألم النفسي ، فان الصور الطبيعية خالية منه .

واذا انتقلنا الى السورة الثالثة في القرآن ، نجد الايجاز يقلّ في تصوير العذاب ، ونلمح عناصر الطبيعة تذكر ، ولكن لا يُسْهَب في ذكرها ((ان لدينا أنكالا " وجحيما ، وطعاما ذا غصة وعذابا اليما ، يوم ترجف الارض والجبال ، وكانت الجبال كثيبا مهيلا " (٤))) ثم يقول بعد قليل ((فكيف تتقون — ان كفرتم — يوما يجعل الولدان شيبا . السماء منفطر به كان وعده مفعولا " (٥))) .

نحن نجد هنا صورا حسية ولكنها كثيفة جدا ، فالانكال والجحيم لا تنعت ولا تصور ولا يُفصّل في عذابها وأهوالها ، والطعام الذى يغص به الآكلون ضرب من العذاب يلقاه المجرمون الكافرون في يوم مخيف ترجف فيه الأرض الواسعة وتضطرب فيه الجبال الراسية .

قد يكون هنا تفصيل اذا نظرنا الى السورة السابقة ، ولكنه يبقى تلميحا اذا نحن تذكرنا صور الجبال تطير كالعهن المنفوش أو تمر مر السحاب في مواضع أخرى واذا تذكرنا ايضا صور الأرض تدعى مع السماء فتجيب طائعة ، أو تكون ساكنة خاشعة فينزل عليها الماء فتهتز وتربو ، والى آخر ما مر معنا في فصول سابقة .

---

(١) القلم ٣٣
(٢) القلم ٣٤
(٣) القلم ٤٢ — ٤٣
(٤) المزمل ١٢ — ١٤
(٥) المزمل ١٧ — ١٨

ولا يقل المشهد الثاني من هذه الآيات ايجازا وتلميحا عن الأول في عرض اجزاء الطبيعة فصحيح ان الموقف هائل مخيف حتى يشيب منه الاولاد ، ولكن عناصر الكون تغيب فيه الاسماء منفطرة تملأ الخيال وتروع القلب .

واذا عدنا الى السور الرابعة (المدثر) والخامسة (الفاتحة) والسادسة (المسد) وجدنا الايجاز نفسه اذ تمر الصور والعناصر الطبيعية مرا سريعا خاطفا ، حتى اذا وقفنا امام السورة السابعة (التكوير) رأينا اسهابا في سعة الصورة وشمولها عناصر الطبيعة كلها ولكننا نلمح ايجازا في ذكر هذه العناصر ، ((اذا الشمس كورت ، واذا النجوم انكدرت واذا الجبال سيرت ، واذا العشار عطلت ، واذا الوحوش حشرت ، واذا البحار سجرت واذا النفوس زوجت ، واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ، واذا الصحف نشرت ، واذا السماء كشطت ، واذا الجحيم سعرت ، واذا الجنة ازلفت ، علمت نفس ما أحضرت)) .

لا شك اننا هنا امام عناصر كثيرة من الطبيعة فيها الحي ، وفيها الجامد فالصورة واسعة الجوانب ، كثيرة المشاهد ، ولكننا لولا حظنا كل جزء منها ، رأينا فيه ايجازا شديدا يتجلى في هذه الافعال الماضية المبنية للمجهول بعد كل عنصر ، فالشمس كورت بعد اشراق والنجوم انتثرت بعد تماسك ، والجبال طارت بعد رسو ، والعوق العشار اهملت بعد عناية . والوحوش تجمعت بعد شرود وهكذا تذكر العناصر بشمول ، ولا يوقف عند كل منها كما سنجد في غير هذا الموضع ، واظن أن ما قدمته من شواهد عن السور الأولى كاف للخروج بفكرة هي أن الايجاز نوع من الاسلوب ، لجأ اليه القرآن الكريم في السور الأولى (١) .

بعد هذا نخطو خطوة اخرى ، فنتناول ما بقي من آيات مكة المكرمة ملاحظتين فيها الايجاز والاسهاب ، لنجد ان القرآن لم يكن يتخذ الزمن قاعدة في ذلك فانت تجد سورة متأخرة يشيع فيها الايجاز ، وسورة مبتكرة تمتلئ بالاسهاب ، فهذه هي سورة الاعراف وهي التاسعة والثلاثون من حيث ترتيب نزولها ، نجد فيها وصف النعيم والجحيم مطولا يحفل بالحوار والظلال النفسية ، والمناظر تتلاحق باطراد وانسجام ، وتبرز الحسرة المريرة من خلال الاحاديث المعذبين النادمين ، وتفيض وجوه المنعمين بشرا وحياة ، كل هذا يمر بشريط مطول مسهب ، وجمل طويلة هادئة واسلوب سهل مرسل ، وتطوى الصورة وتتلون جوانبها بالحوار بين اهل الجنة واهل النار (٢) . ثم ننتقل الى الانفطار ، وهي السورة الثانية والثمانون — فنجد ايجازا شديدا في ورود عناصر الطبيعة ، وان كنا نجد سعة في رقعة السورة وتمدد جوانبها واجزائها . على غرار ما شاهدنا في سورة التكوير ((اذا السماء انفطرت ، واذا الكواكب انتثرت ، واذا البحار سجّرت واذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت (٣))) .

ولا نكاد نمضي في قراءة هذه السورة حتى نجد ايجازا آخر أكثر شدة ووضوحا في صورتي

---

(١) المدثر (٣) الانفطار ١ — ٥

(٢) الآيات طويلة جدا اكتفي بالاشارة الى هنا وهي من الآية ٣٥ حتى ٥١ الاعراف

الجنة والنار ((ان الابرار لفي نعيم ، وان الفجار لفي جحيم ، يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين (١))) فالذين بـرّوا واصلحوا في جنة لا تلقى عليها الا صفة واحـدة (النعيم) والذين فجروا وكفروا في جحيم تشويهم يوم القيامة .

ولعلّ هذه الصورة تذكرنا بما مر معنا من صور الطبيعة في السور الأولى من القرآن الكريم التي امتلأت بهذا اللون من الشمول والايجاز ، واذا تذكرنا سورة الاعراف التي تسبقها في النزول اتضح لنا ان ذلك لم يكن له تاريخ معلوم ، ولا اهتم القرآن بالزمن في اتباع الاقتضاب أو الاطناب . ونعود الى سورة يونس — وهي السورة الواحدة والخمسون — فنجد العرض بين الايجاز والاطناب ((هو الذى يسيركم في البر والبحر ، حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ففرحوا بها ، وجاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم احيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين (٢))) فالصورة هنا ليست مطولة مسهبا فيها ، ولا هي موجزة في العرض والتصوير ، فكل معنى لبس ثوبه من اللفظ المناسب له ، وكل جملة تؤدى الى التي بعدها ، كما تؤدى المقدمات الى النتائج .

فقد ركب القوم السفن في البحر ، فنحهم الله ريحا طيبة ، وهذا يحمل علـى الغبطة والسرور ، ويحمل عند آخرين على البطر والتمرد فلتصغر نفس الانسان المتكبرة في ذل ، المتجبرة في ضعف ، ولتعصف الريح العاتية الهوجاء وليتعالى الموج الزاخر من كل جهة ، وهنا ترتضخ النفس الحرون ، وينصاع القلب المتمرد ، ويقف القوم أمام الموت وجها لوجه ، فيرجعون الى قوة ازلية وتصفو نفوسهم ، وتخلص نياتهم ويتضرعون الى الله ويسألونه النجاة والخلاص وهكذا نرى أن هذه الصورة لم تتبع الايجاز ولم تسلك الاسهاب ، وانما اتخذت منزلة بين المنزلتين وقد نزلت بعد الاعراف المطـوّلة الصورة ، وقبل الانفطـار الموجزة العرض ومن هنا يتضح جليا أن الزمن تحطم أمام اسلوب القرآن في مكة ، وخـلا أثره في آية وطريقة تناوله للصور (٣) والأمر نفسه يشاهد في السور المدنية فلو أخذنـا صور الجنة والنار ، وتنقلنا هنا وهناك ، لوجدنا ايجازا احيانا ، واطنابا أحيانا اخرى ففي سورة الرعد ، وهي السادسة والتسعون ، تصور النار على هذه الشاكلة : ((وان تعجب فعجب قولهم : أإذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد ، أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الاغلال في اعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٤))) فقـوام الصورة هنا قوم كفرة يشـكون في العودة بعد الممات ، توضع الاغلال والقيود في اعناقهم

---

(١) الانفطار ١ — ٥ (٢) يونس ٢٢

(٣) انظر الصافات الآيات ٤١ — ٤٨ والآيات ٦٢ — ٦٧ والانشقاق ١ — ٥ والمطففين أسهبت فيها صورة الجنة وأوجزت صورة النار .

(٤) الرعد ٥

ثم يخلدون في النار يوم القيامة ، ولعلك لا تجد من أهوال القيامة الا هذه الاغلال والا هذا الذكر السريع للنار ، يمر خاطفا جدا ، وكذلك في سورة النور ، وهي الثانية بعد المئة : ((ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون (١)))

قد يكون في شهادة هذه الاعضاء لمحات أدبية ، وظلال وجدانية ، ولكن هذا لا يدفع أن يكون عنصر الايجاز واضحا في تصوير النار التي نعرفها في أماكن أخرى مطولة مسهبة مثال ذلك في سورة الحديد — وهي الرابعة والتسعون — تمر النار في أثواب نفسية ، وتغيب الماديات للصورة ، ونلمح العذاب يحيط بالكافرين ، كما نتصور النار اللاهبة تلفح وجوههم السود وذلك ((يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم ، قالوا : بلى ! ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير (٢))) .

الصورة هنا مطولة بعض الشيء تمتلىء بالحوار الذي يشيع فيها حركة نفسية وان كانت صورة النار الحسية غائبة لا تبين .

واذا استعنا هنا بسورة مكية لصورة النار ، اتضح لنا تماما ان السياق لا الزمن كان يعين نوع الاسلوب من الايجاز أو الاسهاب ، ففي سورة الملك : ((وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير اذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور ، تكاد تميز من الغيظ ، كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ، قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء إن انتم الا في ضلال كبير ، وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم ، فسحقا لأصحاب السعير (٣))) .

ان مقومات الصورة المطولة هنا شيئان : تشخيص الجوامد ، وحوار بين الزبانية والمعذبين ، فالنار لم تعد جحيما يتلظى ، ولهيبا يتقد ، بل تضفي عليها الملامح الحية ، فتصور كالوحوش تشهق شهقات تشغل لها القلوب الكافرة ، وتقشعر لها الجلود المتنمرة ، ثم هي تفور وتغلي ، وتحقد وتغتاظ ، حتى لتكاد تشقق من غيظها وحقدها وأمام هذا المنظر المخيف المروع يجرى الحوار بين ملائكة النار وزبانيتها وبين هذه الافواج التي تلقى هذا السؤال ، ألم يأتكم نذير ؟ فتجيب والذل يغشى وجوهها :

---

(١) النور ٢٣

(٢) الحديد ١٣

(٣) الملك ٥ — ١١

بلى قد جاءنا نذير ، ثم يستمر التقريع النفسي يتفجر من خلال الندم الأليم ((لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في اصحاب السعير .)) .

ولعلي قد وصلت في صور النار الى ماأريد من الدلالة على الفكرة التي ذكرتها في مطلع هذا البحث ، فلأنتقل الى صور أخرى من الطبيعة ، ولتكن صور الجنة المقابلة لصور النار ولكني لن أقف عندها لأن فيما مر من شواهد كافية على ماأذهب اليه .

وعلى كل حال لا تختلف صور الجنة عن صورة النار في التقلب بين الضربين من الاسلوب فبينما تراها موجزة في سورة الرعد — وهي السادسة والتسعون — تراها مطولة في سورة الرحمن — وهي السابعة والتسعون — وفي سورة محمد — وهي الخامسة والتسعون ولعل هذا التراد ف الزمني في النزول يفيدنا كثيرا في الدليل على فكرتنا .

واذا كنت قد اتخذت ثنائية من عناصر الطبيعة شاهدا على طريقة العرض بين الايجاز والاطناب ، فلأني أرى أن الطبيعة كلها ذات صبغة واحدة يدل جزء منها على سائر الاجزاء ، بل ان القرآن الكريم كله متلاحم لاانفصام في اسلوبه ، ولااختلاف ، وكله يتبع اسلوبا واحدا سواء أكان ذلك في عرض صور الطبيعة ، أم عرض أفكار مجردة .

وعلى كل حال لم أتبع هذا الا في القسم المدني ، أما في القسم المكي فقد كنت استشهد بعناصر متنوعة من الطبيعة ، فلم تختلف النتيجة ، ولم تتغير الفكرة ، وهكذا نجد أن السور الأولى من القرآن الكريم لها طريقة خاصة وأسلوب معين حتى اذا استثنيناها وجدنا القرآن كله سواء ، المكي منه والمدني ، في حرارة اسلوبه وقوة تصويره ، واتباعه خطا واحدا من التعبير ، يتميز بالايجاز احيانا ، حتى لترى الصور مكثفة ، والكلمات موحية والطبيعة تمر مرا سريعا خاطفا ، وبالاطناب احيانا فاذا التشخيص والحوار والظلال النفسية ، ينزل هذا بحيث يرى ، ويوضع ذاك حيث يستحسن . . . أدب الهي ينشر على الأرض بلاغة السماء .

٢ — التصوير :

والطريقة الثانية التي تلاحظ في أدب الطبيعة ، كما يعرضه القرآن الكريم هي التصوير ، وقد تكون هذه الناحية عامة في اسلوبه ولا تقتصر على مانحن فيه من بحث جزئي حتى ان اديبا كبيرا في هذا العصر ألف كتابا رائعا عن التصوير الفني في القرآن ووجد أنه هو الاسلوب المفضل فيه (١) .

ولا نستطيع أن نمر بهذه الفكرة قبل أن نعرض أثر الصورة في الأدب ونبين قيمتها في عالم التعبير ، لأنها قد احتلت اليوم مكانا عظيما في النقد الحديث ، الغربي منه والعربي . والنقطة التي ينطلق منها النقاد المحدثون لبحث هذه الفكرة هي اقامة الفوارق بين التعبير الجاف والتعبير الموحي ، فبينما تمر بقصائد أو ابيات من الشعر

---

(١) هو الاستاذ سيد قطب في كتابه ((التصوير الفني في القرآن)) .

دون أن تتأثر منها أو تنجذب اليها ، ترى نفسك أمام قصائد اخرى لا تملك قلبك أن يشب ، وعاطفتك أن تهتز .

ولعل التصوير والايحاء هما الركنان اللذان تقوم عليهما الفوارق بين الشعر والنثر العلمي ، فاذا نحن جردنا الشعر والنثر الفني منهما رأينا أننا لا نقرأ أدبا حيا بل نقرأ علما مصبوبا في قوالب لفظية ، فيها ايقاع العروض وتقطيعاته ولكنها تخلو من انطلاق الشعر وتحليقاته .

ونستطيع أن نضرب مثالا لهذا شاعرين حديثين أولهما جميل صدقي الزهاوي شاعر العراق ، وثانيهما عمر أبو ريشة شاعر سوريا . أما الزهاوي فقد ملأ شعره بنظريات العلوم من فلك وجاذبية ومادة وجوهر وعلوم كونية أخرى ، دون أن نلمح عنده وجدانا انسانيا أو عاطفة متأججة حين يقف مما يصف ، كما لا نشاهد صورا ملونة شاخصة تشيع في ديوانه ، ولهذا كان شعره باهتا لا يجذب القارئ ولا يلذ سماعه ، وأولى بقصائده أن تكون فصولا في كتبه العلمية الكونية من أن تعد شعرا في ديوان .

أما ابو ريشة فترى كل فكرة تعود على يديه صورة مشرقة وضاحة ، فلا تكاد تبدأ القصيدة حتى تتلاحم الاطياف السحرية أمام ناظريك ، وتشعر انك أمام شعر موح وظلال حانيه ضافية ، هنا تلمح ضلوع نهر اليرموك تحمل نعوشا هوامد الابدان وهناك تلمح غزوة بدر تعج بالصور الحية المسرغة بالدم والبطولة والايمان ، وتنتقل في شعره بين مشاهد ومشاهد حتى يخيل اليك أنك ترى اشرطة من الصور تمر أمامك في زهو واشراق .

ولقد أخذ النقاد في هذه الايام يلحون على الناحية التصويرية ويعدونها ركنا اصيلا في تقويم العمل الأدبي ، واطرحوا ماكان يهتم به القدماء من لفظ جزل ومعنى قوى ، وراحوا يستوحون الفاظ اللغة ومافيها من ظلال وايحاء وما ترسب فيها من مفهومات على مر الايام والعصور .

والناظر في الشعر العربي منذ الجاهلية حتى اليوم يقف على آثار حافلة بهذه التعابير التصويرية ، البديعة ولا يفوته أن يرى أن الكثرة الغالبة منه تعج بالصور وتمتلئ بالايحاء ، ثم لا يهمه بعد ذلك أن يرى ثمة بعض المتون اللغوية والفقهية والبلاغية تصاغ شعرا جامدا جافا كقصيدتي بشر بن المعتمر اللتين نظمهما في الحيوان ، وكنظم إبان بن عبد الحميد لكتاب (كليلة ودمنه) وقصيدة ابراهيم بن الفزاري في الفلك والنجوم ، وألفية ابن مالك الشهيرة في النحو ، كما لا يهمه أن يلمس بعض الابيات الجافة في دواوين بعض الشعراء وان كانت تباين هذه القصائد العلمية التي ذكرت بعضها .

فالتصوير اذن تعبير حي في الشعر ، وسمة بارزة في الأدب ، فما هو نصيب القرآن منه في بحثنا الخاص بالطبيعة ؟

اذا امعنا النظر فيه وجدنا أن ثمة صورا نستطيع أن نسميها مركبة لأنها تجمع عناصر كثيرة ، وتظللها خطوط ملونة ، كما نجد صورا نسميها بسيطة لأنها لا تذكر

الا عنصرا واحدا أو لأنها تكتفي بالذكر والصفة ، ثم لا تتم التصوير ولا توضح القسمات فلننظر هذه الايات من سورة الرعد ((اللهالذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخّر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١))) .

ان القرآن هنا يريد ان يعبر عن قدرة الله ، فيسوق هذه العناصر من الطبيعة لتكون أدلة على ذلك فالسماء مرفوعة بقدرته والشمس والقمر مسخران من قبله وهذه الأرض المديدة وما فيها من جبال وثمرات وبساتين ان هي الا من ابداعه وخلقه .

الا ان هذه الفكرة لا تساق باسلوب تقريرى جازم ، بل تحشد لها عناصر الطبيعة كلها فبينما نحن في اطباق الجو نطالع عظيم صنع الله ، ونقف على آياته وعجيب خلقه ، اذا بنا ننتقل فجأة الى الارض لنرى فيها دلائل اخرى على قدرة الخلاق العظيم .

ولعلك ترى أن هذه الصورة تجمع اجزاء كثيرة تمتد رقعتها حتى تشمل السماء العالية والأرض المديدة ، ثم تقوم في ساحاتها شمس وهاجة وقمر منير وجبال راسخة واثمار متنوعة وانهار جارية ، نأوى من حر الشمس الى ظلال النخيل وجنات من اعناب ، ونطالع البدر في بساتين خضر مليئة بالثمر والفاكهة .

ونجد نوعا من النظام في رسم اللوحة وعرض الاجزاء ، فهو يبدأ بالفضاء فترى السماء ترتفع بغير عمد والشمس والقمر مسخران بأمر الله ، وتنتقل الريشة السماوية الى رحاب الأرض لتتم المشهد وتكمل الصورة .

ثم اننا نجدها تتناوبها مفاتن الليل ومباهج النهار ، فالشمس تشرق والقمر يبزغ وهذه الجنات الوارفة تستقبل هذا وتستقبل تلك ، والخيال يمتلئ والنفس تهيم في جمال الطبيعة ومسرات الحياة .

وبين كل لمحة وأخرى يبرز الغرض المقصود وهو الدعوة الى التفكير في الله والايقان بلقائه وأخذ الحكمة من آياته العجيبة وابداعه العظيم . وهكذا تمر الصورة مركّبة لها غاية مرجوّة تتجلى في الطبيعة بأجزائها كافة .

صورة أخرى مشابهة من سورة الانبياء نجد فيها تلوينا جديدا على الرغم من ذكر العناصر نفسها ((أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذى

(١) الرعد ٢ — ٤

خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون (١)) .

المخاطبون هنا هم الذين كفروا وتمادوا في كفرهم ويراد الى افحامهم بالحجة والأدلة القاطعة فتوضع أمامهم صورة خلق الكون كله فاذا نحن امام طبيعة قديمة لا تميز فيها سماء من أرض بل كانت الاجرام كلها جسما واحدا متلاحما ثم انفصلت بقدرة قادر فظهرت أرض واطئة واجسام سابحة في الفضاء وعاد الكون كله بيتا واسعا يظلله سقف عال تسبح دونه الكواكب والنجوم .

ولعل العناصر في الصورتين لا تختلف ولكن الاسلوب هنا غيره هناك فاننا نجد عنصرا جديدا يسرى في الايات أو قل في زوايا الغرض المقصود من الصورة . هو هذا التعليل والتوضيح ، فوجود الجبال لم يكن الا " حفظا لتوازن الأرض وهذه السبل والفجاج لم تخلق الا " ليسلكها الناس فيهتدوا الى اعمالهم وشؤون حياتهم .

كما أننا نجد بعض الالوان الجديدة تضاف اليها كجعل كل شيء حي يخلق من الماء واقامة الفجاج والسبل في مرتفعات الجبال ، وغياب الزروع والبساتين والانهار التي وجدناها في تلك الصورة .

والملاحظة البارزة هنا هي هذه الالفاظ الموحية التي نجدها في النص فانفصام هذا الرتق الضخم الهائل وفتقه يجعلنا نقف مشدوهين أمام تلك القدرة الالهية الجبارة التي يكفر بها الكافرون ، ويجحدها الجاحدون على الرغم من ان اللفظة عادية في حقيقتها لا تحمل مجردة أي ايحاء ولكن السياق هو الذي غمرها بهذا الجو التصويري الذي نرى .

لفظ آخر في النص لعله أعظم تصويرا وايحاء مما تقدم هو كلمة " يسبحون " للشمس والقمر والليل والنهار أترى الى تلك السباحة المدهشة يقوم بها جرم لاهب كالشمس في جو رهيب ، ان الخيال ليسبح وراءه ويتصوره يخترق لجج الفضاء متقدا مشتعلا ثم ينتقل الخيال ليرى القمر سابحا وهو في حجمه وضخامته مثار الغرابة ومكان الدهشة . . أما سباحة الليل والنهار فأمر عجب وتصوير فذ لا يدركها الا " الخيال الحالم والنفس الهائمة فكتائب من الظلام يركب بعضها بعضا واطباق من الاشراق المديد تسبح في الكون العظيم والطبيعة الواسعة . كل هذا يثيره لفظ " يسبحون " فلو كان " يدورون " أو غيره لما كان هناك أي ايحاء ولا أنتقلنا كل هذه النقلة ولا جمح بنا الخيال الى فسيح الجو ومديد الفضاء .

هذان نموذجان للصور الطبيعية في القرآن الكريم وهما يشتملان على عناصر كثيرة في لوحاتهما ، ولعل امثالهما التي مرت في صفحات هذه الرسالة أكثر من أن تحصى ويشار اليها .

بقي نوع من الصور لا تعقد فيه العناصر ولا يركب بعضها بعضا ولكنها تضم عنصرا

---

(١) الانبياء ٣٠ — ٣٣ .

واحدا من الطبيعة الا انه يشخص وتضفي عليه المسحة الروحية الآدمية بالفاظ ذات ايحاء تحمل الخيال على ان يسبح وراءها في عالم أدبي بهيج .

وقد تكفل الاستاذ سيد قطب في كتابه " التصوير الفني في القرآن " بحث هذا النوع من التشخيص وان كان بحثه لا يختص بالصور الطبيعية بل يتناول كل مافي القرآن من صور فلنستعن به على توضيح هذه الفكرة وتجليتها :("لون من الوان " التخييل " يمكن ان نسميه " التشخيص " يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية ، هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة انسانية تشمل المواد والظواهر والانفعالات وتهب لهذه الاشياء كلها عواطف آدمية وخلجات انسانية تشارك بها الآدميين وتأخذ منهم وتعطي ، وتتبدى له في شتى الملابسات ، وتجعلهم يحسون الحياة في كل شيء تقع عليه العين أو يتلبس به الحس ، فيأنسون بهذا الوجود أو يرهبونه في توفز وحساسية وارهاف . هذا هو الصبح يتنفس " والصبح اذا تنفس " فيخيل اليك هذه الحياة الوديعة الهادية التي تنفرج عن ثناياه وهو يتنفس ، فتتنفس معه الحياة ويدب النشاط في الاحياء على وجه الأرض والسماء ، وهذا هو الليل يسرع في طلب النهار فلا يستطيع له دركا " يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا " ويدور الخيال مع هذه الدورة الدائبة التي لانهاية لها ولا ابتداء . أو هذا هو الليل يسرى " والليل اذا يسر " فتحس سريانه في هذا الكون العريض وتأنس بهذا السارى على هينة واتئاد ، وهاتان هما الأرض والسماء عاقلتين يوجه اليهما الخطاب فتسرعان بالجواب " ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها . قالتا : أتينا طائعين " والخيال شاخص الى الأرض والسماء تدعيان وتجيبان الدعاء . وهذه هي الشمس والقمر والليل والنهار في سباق دائم ولكن " لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار " وانه لسباق جبار لا يني أو يفتر في ليل أو نهار . وهذه هي الأرض هامدة مرة وخاشعة مرة أخرى ينزل عليها الماء فتهتز وتحيا " وترى الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج " . " ومن آياته انك ترى الأرض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت " وهكذا تستحيل الأرض الجامدة كائنا حيا بلمسة واحدة في لفظة واحدة .

وهذه جهنم ، جهنم النهمة المتغيّظة التي لا يفلت منها أحد ، ولا تشبع بأحد جهنم التي تدعو من كانوا يدعون الى الهدى ويدبرون ، وهم لدعوتها على الرغم منهم مجيبون ، جهنم التي ترى المجرمين من بعيد فتتغيظ وتفور " يوم نقول لجهنم : هل امتلأت وتقول هل من مزيد " . " اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيّظا وزفيرا " . " اذا القوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور تكاد تميّز من الغيظ " . " انها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى . "

وهذا هو الظل الذى يلجأ اليه المجرمون " وظل من يحموم لا بارد ولا كريم " ففي نفسه كزازة وضيق لا يحسن استقبالهم ولا يهش لهم هشاشة الكريم ، فهو ليس " لا بارد "

فقط ولكن كذلك " ولا كريم " وهذه هي الرياح لواقح " وأرسلنا الرياح لواقح " بما تحمل من ماء ، ولكن التعبير عنها أكسبها حياة تلقح وتنتج (١)) .

فيما مر معنا من هذه الفقرة جواب شاف على السؤال الذى طرحته في أولها وهو ماهو نصيب القرآن من التصوير في بحثنا الخاص بالطبيعة ؟ فلقد رأينا أنه أسلوب هام جدا يتناول الافكار والمعاني فيمثلها صوراً ناطقة شاخصة ، للخيال فيها نصيب واف ، وللتشخيص فيها قسط كبير .

٣ ـ الترابط والسياق :

ذكرت كثيرا في هذه الرسالة أن السياق وحده هو الذى يراعى في طريقة عرض الصور من ايجاز واطناب وتكثيف أو تخطيط وبينت أن تقسيم القرآن الى مكي ومدني لا يعتمد على الواقع ولا يستقرىء النصوص كلها وان اسلوبه لا يتأثر بالزمن بل يتأثر بالموقف الذى هو فيه فما مقدار هذا من الصحة ؟

هنا نضطر الى عرض الشاهد كله مع تحليل مامر قبله وماجاء بعده لنستطيع ان نعلل عرض المشهد بالطريقة التي رسم فيها ... ولنأخذ ثلاث صور متشابهة تماما في الفحوى الذى يراد منها والعناصر التي تبرز فيها هي انزال الماء من السماء وانبات النبات ثم اصفراره وانقلابه الى حطام لا نفع فيه .

الصورة الأولى من سورة " الزمر " التي يتلخص موضوعها بالرد على عبّاد الاصنام تارة ، والذين يدعون أن لله ولدا تارة أخرى فيضع أمامهم صور خلق السماوات والأرض ، ثم صور خلقهم في بطون أمهاتهم ، ثم يذكر ضعف هذا الانسان ، فهو يضرع الى الله اذا ألم به الضرر حتى اذا ذاق النعمة بطر وجعل لله أندادا ، ليضل عن سبيله ، ثم يضع بجانبه صورة المؤمن الساجد له ، ويتخلل السورة وعظ للذين آمنوا يبشرهم بنعيم ذى غرف ويصفهم بأنهم ((أولو الألباب)) وبعد هذا التنقل بين الكافرين والمؤمنين ترد صورة الطبيعة ((ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يجعله حطاما ان في ذلك لذكرى لأولى الألباب (٢)))

تقوم الصورة كلها على الدعوة الى التأمل في الطبيعة ونظامها الدقيق ، فهذه الزروع التي يعيش عليها قسم ضخم منهم ، وتكثر الاشارة اليها في الشعر الجاهلي والاسلامي لم تنبت الا بعد أن تزل الماء من السماء ، فامتلأت به الأرض ، ثم تفجر عيونا ثرة ، ثم جرى يسقي الزرع ، ثم نصل الى نهاية المرحلة بهيجان هذا الزرع وجفافه واصفراره ، أفهذا النظام الدقيق من صنع الأحجار المنحوتة التي يعبدون ، أم من صنع البشر الذين يؤلهون ؟

---

(١) التصوير الفني في القرآن : ص ٦٣ — ٦٤ — ٦٥ . (٢) الزمر ٢١

ان العقل الانساني الذى يقف حيال الدعوة الأولى الى الاسلام ، تجذبه اليه نوازع الايمان بقوى غيبية تتلامح له كأنها أمامه ، وتجره الى الوراء تقاليد موروثة ، وعصبية جاهلية ومخاوف نفسية غامضة ، هذا الحائر المتردد يدعى الى التفكير في دقة النظام الكوني ، فلا يملك الا" أن يعترف من الايمان بالاستطاع ، ولا يقوى أن يعمل شيئا غير أن يصدق بوجود مدبر لهذا الكون المنتظم .

واذا جارينا المفسر الكبير ناصر الدين البيضاوى (١) ، بأن هذه الصورة ربما كانت تمثل لهم الحياة الدنيا على أنها فانية كما يفنى الزرع ، لئلا يغتر بها أحد ، كان ثمة نوع آخر من السياق والترابط بينها وبين ما مر قبلها من معان ، فهي تضرب مثلا" بعد أن سيق لنا حديث يتناول المؤمنين والكافرين ، لتظهر أن الدنيا زائلة وأن العيش فيها حلم لا يلبث أن يزول ، وأن الآخرة امتحان يسقط فيه المكابرون المشركون في النار ، ويرتقي فيه المؤمنون التائبون غرف الجنان ، ولكن الأمر هنا لا يقتصر عند هذا العنصر من الترابط بل هناك شيء آخر ، فالقرآن قد وصف لنا المؤمنين بذوى الألباب ، وأضدادهم بالضلالة العقلية ، فاذا الصورة الطبيعية حادثة عملية تقوم في مخبر الحياة ، ويختلف في الموقف منها الناس ، فيلحظ فيها قوم قصة اعمارهم ورواية وجودهم ، ماء ينزل من السماء ، ويعلو الزرع من بطون الأرض كما ينحدرون هم من بطون امهاتهم ، ثم يهيج فيصفر كما يمرضون ويهزلون ، ثم يغدو حطاما فتاتا كما يموتون ويوارون التراب ، فليعملوا صالحا ، وليقدموا ما يستطيعون من خير ، لأن لقاء الله قريب .

وهناك قوم تمر بهم هذه التجربة فلا تلفت منهم انتباها ، ولا تثير فيهم تساؤلا" وانما هم سادرون غافلون ، كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الكافرون . انسجام آخر يلاحظ في انتقاء هذه الاجزاء الخاصة من الطبيعة ، ذلك أن هناك كثيرا من العناصر الكونية تولد وتموت ، فلماذا اقتصر القرآن هنا على الزرع ؟

ان هذا يرجع الى الحياة العربية في الجزيرة ، فهم يرون منظر ولادة الزرع وموته كل عام ، ولعلهم يشاركون جميعا في وسائل هذا النمو ، وأسباب ذلك الموت فالحادثة اذن قريبة منهم ، بل مجاورة لحياتهم ، وكأن القرآن أراد أن يصور لهم قصر أعمارهم ، وأن مدة عيشهم على الأرض ، لا تستحق بطرا" مهما تكن النعمة ، ولا تدعو الى الجحود مهما يكن السلطان ، فنبههم بما هو قريب المتناول ، واضح المثال ، فالترابط اذن بارز بين الصورة وبين ما مر قبلها ، فهل هي منسجمة أيضا مع ما بعدها ؟ لعلنا لاحظنا أن أولي الألباب ينعمون بجنة الله ، وان الكافرين يعذبون بكفرهم ، ولكن الله وراء ذلك كله ، فهو الذى رزق العاقلين عقولهم ، وحرم الكافرين من نعمة العقل

---

(١) تفسير البيضاوى الجزء الثاني ص ١٤٤ .

وهكذا تكون الصورة بحاجة الى شرح وتوضيح بعد أن مرت مثالاً وشاهدا على ماتقدم فتساق بعدها هاتان الآيتان : ((أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك في ضلال مبين الله ، نزّل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل فما له من هاد (١) فأولو الالباب الذين يتخذون من منظر الزرع ذكرى حسنة تنفسهم ، هم الذين شرح الله صدورهم للاسلام ، وجعلهم على نور منه ، وهم الذين تقشعر جلودهم خوفا منه ورهبة ، ((ثم تلين جلودهم وقلوبهم)) ، الى ذكره وأولئك الجاحدون الذين غفلوا عن العبرة من تعاقب حياة الزرع وموته ، هم الذين أضلهم الله ، وقست قلوبهم من ذكره فما لهم من هاد)) .

فالسورة كلها كما ترى تبحث في صنفين متغايرين من الناس ، فوصفتهم وصفا مجردا في البدء ثم مرت امام الخيال صورة من الطبيعة ذات علاقة وثيقة بالبحث وبينت موقف الصنفين منها ، ثم شرحتها بآيتين كريمتين ، وجعلت الامر كله معلقا بالله .

واللوحة نفسها تعرض في سورة يونس ، فيخيل للمتسرع أنها لاتختلف عن تلك البته ، حتى اذا دقق النظر ، وتفحص الملامح ، وجد السياق يعيّن اشياء واشياء لم تكن ملاحظة هناك .

فالشيء الأول ان الغرض هنا يبرز بروزا واضحا بينما كان هناك مجال للتفكير فيه والتأويل له ، كما انه يختلف عن الغرض السابق كل الاختلاف ، فبينما كان دعوة الى التفكير في دقة الكون ، عاد هنا لايقصد الا ان يفهم الناس أن حياتهم قصيرة جدا وان بغيهم على أنفسهم : ((ياأيها الناس انما بغيكم على انفسكم ، متاع الحياة الدنيا ثم الينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ، انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض ، مما يأكل الناس والانعام ، حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا ، كأن لم تغن بالامس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون (٢))) .

تأتي هذه الصورة بعد مشهد آخر يظهر فيه القرآن تبرم هذا الانسان ، فهو ايام الضيق يرجع الى الله ، يدعوه متضرعا ذليلا خاضعا معاهدا بالتوبة النصوح ، والايمان الصادق ، ولكنه بعد كشف الضر يبدو جافيا غليظا جاحدا كفورا ، فهو اذن يحتاج الى قسوة وتهديد عنيفين ، فيأتي له القرآن بهذه الاداة الحاصرة المؤكدة ((انما)) ليفهمه أنه لايظلم الا نفسه ، ولا يبغي الا عليها ، لأن العودة الى الله قريبة جدا ، وهناك يجد ماعمله محضرا ، ولا يظلم ربك احدا ، ثم تمر اللوحة في انسجام تام مع هذه الفكرة

---

(١) الزمر : ٢٢ — ٢٣ .

(٢) يونس : ٢٣ — ٢٤

فهي تريد أن تبرز ناحية البطر عند الانسان ايام النعمة والراحة ، ولهذا تراها تمثل السرعة الخاطفة في أولى مراحلها فتستعمل ((الفاء)) العاطفة التي تفيد السرعة والترتيب وكما يذكر النحاة — لأن هذه المرحلة لاغاية لها في تمثيل شيء غير المدة الأولى لزهو النبات الذى يمثل حال البطر عند الانسان .

وبعد ان ترى هذه اللفتة السريعة تقف اللوحة امامك ، وتمر بهدوء ، ويطول زمن العرض ، ليظن الناظر ان النهاية بعيدة ، كما كان يظن المنعم أن الحياة خالدة فاذا اثت امام ارض تزخرف بالنبات ، وتزين به وأمام اصحاب لها يبنون آمالا " طوالا " عليها ويحسبون أن ريعها رهن اعمالهم ، وفي متناول أيديهم ، ناسين الله ، متجاهلين نعمته عليهم . بعد هذا تعود اللوحة الى السرعة الخاطفة ، لتمثل سرعة الفناء ، واندثار هذه الآمال ، ولكنها هنا لا تستعمل الفاء كما رأينا في بدئها ، وانما تستعمل الايجاز بالحذف — كما يسميه البلاغيون — فيحذف لفظ الزرع في قوله ((فجعلناها حصيدا)) وفي قوله ((كأن لم تغن بالأمس)) أى : فجعلنا زرعها حصيدا .. وكأن لم يغن زرعها بالأمس ...

وهكذا تتناوب هذه الصورة الطبيعية نوبات من السرعة والهدوء ، فبينما تراها منحدرة انحدار الآتي ، تجدها هادئة هدوء الجدول ، ليتبين منها الغرض المقصود وتنسجم مع السياق التام .

واذا عدنا الى الصورة السابقة في سورة الزمر ووازنا بينها وبين هذه وجدنا الفوارق بين الصورتين واضحة لا تكاد تخفى على أحد فاللوحة في ((الزمر)) تجرى رتيبة متسقة ، مطولة بعض الشيء وتستعمل بالعطف ((ثم)) التي تفيد الترتيب والتراخي في الزمن ، لأن السرعة غير مقصودة ، فليس هناك تهديد عنيف كهذا التهديد ((انما يفيكم على انفسكم)) ، بل هناك دعوة هادئة الى التفكير في الله وموازنة تعليلية بين اصحاب الجنة واصحاب النار .

وفي سورة الكهف تعرض اللوحة ايضا ، ولكن في سمات مغايرة وسياق آخر ، اذ يمر أمامها محاورة بين رجلين موحّد وملحد رزق الثاني ((جنتين من أعناب)) ، حفتا بالنخل ، وقام بينهما زرع و ((كلتا الجنتين أتت أكلها ، ولم تظلم منه شيئا)) . وفجر الله خلالهما نهرا وكان لهذا الملحد مال غير هاتين الجنتين ، فدخله الزهو ، وزاد به العصيان ، وراوده الشك في البعث ، ((فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا اكثر منك مالا " وأعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال : ما أظن أن تبيد هذه ابدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا .)) ، ثم يقابله المؤمن بالاذعان لله ، والرضى بحكمه ، وتمر اللوحة بعد ذلك على هذه الشاكلة : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه

الرياح (١))) .

الصورة واحدة ولكن المشهد جد مختلف ، والعناصر لم تتغير ، ولكن الالوان والظلال تباين ظلال الصورة في ((يونس)) وفي ((الزمر)) كل المباينة ، فنحن هنا لا نكاد نلمح الحياة تولد طفلة حتى نراها على حافة اللحد كهلة هامدة ، فالقرآن لم يكتف بالقاء العاطفة لتشيع السرعة في كل اللمحات ، بل زاد على ذلك أن حذف مراحل الزهو والاشراق ، وزخرفة الأرض بالنبات ، وزينتها به ، كما رأينا هناك ونقلنا نقلة خاطفة من اختلاط الماء بنبات الأرض الى جعله هشيما تذروه الرياح ، وغاب عنا غذاؤه منه ، ونموّه به .

فالمشهد هنا جديد اذا تذكرنا سمات المشهدين السابقين ، والسياق الذى ورد فيه كل منهما ، فالمناسبة هنا لم تقتصر على البطر أيام النعمة والترف كما في ((يونس)) ولا على الموازنة الهادئة بين الكفرة والمؤمنين كما في ((الزمر)) وانما تجمع الالحاد وانكار البعث الى التمرد والزهو بالملك وسلطان الغنى ، وتمر هذه العبارة الصريحة على لسان الملحد ((وما أظن الساعة قائمة)) بهذا الانكار والتصريح ، فليمر شريط الحياة سريعا تحذف منه مراحل النمو ، ولا تبقى منه الا مرحلتان : الولادة ، والفناء .

هذه الصور الثلاث متشابهة في عناصرها وفحواها ، ولكنك رأيت كيف تلونت مشاهدها ، وتنوعت ظلالها ، وأدت كل واحدة منها غرضها خاصا بها ، وتلاءمت مع السياق وارتبطت مع الحوادث فهدت للناظر صورا مستقلا بعضها عن بعض . كأن كل لوحة لا تمت الى الثانية بأية صلة ، وليس ثمة أى رابط بينها .

وليس من شك في أن كل صور الطبيعة في القرآن ، تشبه هذه الصور الثلاث في تلاؤمها مع النص ، وانسجامها مع السياق ، وأنها كلها تقع موقعا مناسبا لها ، وتؤدى غرضا مطلوبا منها ، فاذا تكررت مشاهدها ، واعيد عرض لوحاتها في أماكن عده فليس معنى هذا ان تكرارها يمل ، أو يدل على شيء آخر بل لعله أن يكون ضربا من العبقرية الأدبية ، في عرض مشهد واحد يخيل الى الناظر اليه أنه مشاهد كثيرة ، ولوحات متنوعة مختلفة .

× × ×

ولعل في هذه الشواهد الثلاثة التي سقتها هنا ، ما يكفي دليلا على ان القرآن الكريم كان يهتم بالسياق ، ويسوق صور الطبيعة لتكون حيث يتسع لها المكان ، ويحسن بها الوضع ، ولا سيّما اذا تذكرنا أن الصور الثلاث هنا متشابهة في عناصرها وقسماتها مختلفة في طريقة عرضها ومظاهر لوحاتها واذن فليس من شك في أن الصور الأخرى لا تقل

---

(١) الكهف : ٤٥

عنها انسجاما مع السياق والحوادث ، بل لعلها ان تكون أكثر تلاؤما وأقوى حبكة ، ان صح ان يكون في القرآن أى تفاوت في اسلوبه وتلاحم معانيه وآيه .

الأسلوب :

للأسلوب الأدبي خصائص تميزه من الأسلوب العلمي الذى لا يهمه الا أن يعبر عن المعنى بأقرب طريق وأوضح لفظ فهو خادم للمعنى أو تابع له ، كما يقول بعض نقادنا القدماء ، أمّا الأسلوب الأدبي فايحائي تصويرى ، وله من الفاظه مادة غنية تجعله غير خادم ، بل يقصد لذاته .

وحول هذه الفكرة قامت معركة أدبية قديمة وحديثة ، خاضها أدباء كبار ، وقف بعضهم بجانب الشكل ، ووقف آخرون بجانب المضمون ، ووفّق فريق ثالث بين الناحيتين (١) .

ثم يقوم آخرون بعد مدة متأثرين بآداب الغرب ومدارس الأدب هناك ، وبصورة خاصة ((الواقعية)) ، فلا يعودون يجدون لونا من اللونين يختلف عن الآخر ، بل انهم لا يعترفون بأن ثمة نوعين في ((العملية الأدبية)) يمتزجان أو يفترقان ، وانما هناك أمر واحد وعملية واحدة (٢) .

ولم يخل القرآن من أثر في نشوب هذه المعركة الرائعة الحامية ، بل لعله ان يكون أول باعث لها ، وأول مؤرث لنارها ، فقد كان الجاهليون يفهمون الأدب فهما لا تجزؤ فيه وما كان ليخطر لشاعر جاهلي أو ... للأدب في ذلك الزمن شيء اسمه اللفظ ، وآخر اسمه المعنى ، حتى اذا هب النحاة واللغويون في أواخر القرن الهجرى الأول يجمعون شتات اللغة خدمة للقرآن الكريم ، بدأ القوم يفكرون في التفريق بين العنصرين ، ثم زاد ذلك بظهور الدراسات النقدية حول ((اعجاز القرآن)) أهو باللفظ أم بالمعنى ؟ .

---

(١) من الذين خاضوا المعركة بجانب اللفظ الجاحظ في كتابه ((البيان والتبيين)) وأبو هلال العسكري في ((كتاب الصناعتين)) ، ومن الذين خاضوها بجانب المعنى ابن قتيبة في كتابيه الشعر والشعراء)) ((وأدب الكاتب)) ، والاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه ((مراجعات في الآداب والفنون)) والدكتور أحمد امين في ماكتب ، ومن المعتدلين عبد القاهر الجرجاني في كتابه ((دلائل الاعجاز)) وابن رشيق القيرواني في كتابه "العمدة " واحمد حسن الزيات في كتابه ((دفاع عن البلاغة)) والمنفلوطي في كتابه ((النظرات — الجزء الثالث)) وطه حسين في كتابه ((خصومة ونقد)) .

(٢) انظر المعركة التي قامت بين طه حسين من جهة ، وبين عبد العظيم انيس ومحمود أمين العالم من جهة ثانية ، والتي كان حصادها كتاب ((خصومة ونقد)) للأول ، وكتاب ((في الثقافة المصرية)) للآخرين ، وقد خاضها العقاد ضد هؤلاء ايضا .

كما ان العناصر الفكرية التي بحثت في القرآن الكريم كان لها نصيب واف في اثارة الفوارق ففكرة ((خلق القرآن)) التي نهض بها المعتزلة عامل هام في ذلك ، فقد كانوا يتساءلون : أيهما القديم لفظ القرآن أم معناه ؟ .

ومهما تكن النتائج التي وصل اليها النقد الحديث حول الاسلوب ، فانه يبقى عنصرا أدبيا لا يمكن اغفاله في عالم الأدب الراقي .

أما أسلوب القرآن فالشيء البارز الملاح فيه هو ذلك الأسلوب المعجز الذى يتلون ويتنوع بين تقريرى وحوارى ، فالنوع الأول يساق في معرض السورة ، ولكنه تمتزج فيه الجمل الانشائية والجمل الخبرية ، فهنا استفهام وهناك تعجب ، وهنا دعاء وهناك تقرير ، ويكفي أن نقرأ هذه الآيات من سورة الواقعة حتى تدرك ذلك بوضوح : ((اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، اذا رجت الأرض رجا وبثت الجبال بثا ، فكانت هباء منبثا ، وكنتم ازواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة !! وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة (١) !!)) .

تبتدىء السورة بهذه الجملة الشرطية ، ثم تصف حوادث القيامة بأسلوب تقريرى عادى ممزوج بجملتين استفهاميتين للتعجب ((من حال الفريقين (٢))) . ثم تنتقل السورة بعد قليل الى هذه الآيات : وانهم كانوا قبل ذلك مترفين وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون : أاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ، أوآباؤنا الأولون ، قل : ان الأولين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم ، ثم انكم ايها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون (٣))) .

وهكذا ترى هذه الجمل المتناسقة تتبدل وتتنوع ، فبينما انت امام جمل خبرية اذا انت أمام انشائية استفهامية ، وتمضي السورة الى نهايتها بهذا التلوين الاسلوبي الجميل فتسألهم عما يحرثون ، وعن الماء الذى يشربون ، والنار التي يورون ، ثم تساق هذه الآية الآمرة : ((فسبح باسم ربك العظيم (٤))) .

وليس الانتقال وحده هو الذى يلاحظ في هذه الآيات ، بل ثمة ايقاع موسيقي مبعثه ذلك التوازن في الجمل وتلك الحروف التي تتقارب مخارجها في نهايات الآيات ، وربما كان هذا سمة عامة في اسلوب القرآن الكريم ، يزيده قوة في موسيقاه المجلجلة أحيانا ، وعذوبة في موسيقاه الناعمة احيانا اخرى .

---

(١) الآيات : ١ — ١٠

(٢) البيضاوى ٢/٢٠٧

(٣) من الآية ٤٦ حتى ٦٢

(٤) الآية ٥٧

ولنقرأ هذه السورة القصيرة ((القارعة ؟! ماالقارعة ؟ وماأدراك ماالقارعة !! يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش فأما من ثقلت موازينة فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وماأدراك ماهيه !! نار حامية .))

أسطر قليلة وكلمات تعد ، ولكنها جمعت كل مقومات الاسلوب الأدبي ، في انتقالاته وتلوينه ، في مفاجأاته ، وايحائه ، في جدة الفاظه ووقع تراكيبه ، فهو يقرع القلوب بلفظ ((القارعة)) ، ثم يعقبه هذا الاستفهام الذى يعظم الأمر ويزيده هولا" لوضعه الاسم الظاهر موضع الضمير — كما يقول النحاة في مثل هذه التراكيب — ويأتي الاستفهام الثالث يحوى نوعا من التحدى ويشير الى جهل الانسان كنه أمر الله .

وماسيق هذا ن الاستفهاما ن الا" لأن كلمة "القارعة" عامة شاملة تحتاج الى شرح وتبيان ، ويحتاج السامع المهدد الى من يفهمه ايّاها الا" انه يسمع بعدها هذا التهويل الشديد ، وذلك الاعلان بالعجز عن فهمها وادراكها .

ثم ننتقل الى جملتين تقريريتين ، تمتلاءان بالايحاء والالفاظ المصورة ، فالناس فراش يتطاير . . . كثيرون ولكنهم أذلة ، منتشرون ولكنهم في اضطراب . . . وهذه الجبال الراسيات تعود صوفا ملونا تذروه الرياح ، ويمر من فوق الرؤوس .

ثم تطالعنا جملتان شرطيتان ، يشيع فيهما الايجاز والشمول ، فالنعيم الخالد والجنات الخضر والأنهار الجارية ، يعبر عنها ((بعيشة راضية)) والعذاب الأليم في النار الحامية ذات الأودية السحيقة ، والزبانية المخيفة ، يجمع بهاتين الكلمتين ((أمه هاوية)) ، ثم يعود مرة ثانية لنرى استفهاما يعقبه جوابه بتقرير وصرامة وتهديد .

فالسورة القصيرة حوت كل هذه التلوينات من الاسلوب ، وشاع فيها كما رأينا ضرب من الايحاء والتصوير ، فاذا نحن ننسى أنفسنا لحظة ، لنتصور عذاب المعذبين ونعيم المنعمين ، ولكن ، هل هذا كل مانجده هنا ؟

الواقع ان قراءة ثانية للسورة تبرز لنا خصيصة أخرى من الاسلوب ، هي هذه الموسيقى الصاخبة التي تتبدل في كل جملتين ، فبينما تراها قصيرة المدود اذا انت تلمحها طويلة النفس ، ولكن الأمر لا يقف ايضا عند حدود هذه الملاحظة ، فما تكاد تنظر اليها حتى ترى فيها هذا النمو والتطويل كلما اقتربت من نهايتها ، فالآية الأولى أقصر الآيات ثم تليها الثانية فالثالثة ، فالرابعة والخامسة ، فالسادسة والسابعة ، ثم تعود الى التقصير لتكون نهاية القطعة . . .

هذه الوقفة عند الاسلوب الظاهرى تستطيع أن تعطينا فكرة شاملة عن عرض مشاهد الطبيعة في القرآن بأسلوب تقريرى ، ولكنه حافل بالقوة ، ملي بالحياة .

على أننا نجد أحيانا اسلوبا تقريريا يخلو من هذا التلوين ، فلا يحفل بالاستفهام أو الامر أو الدعاء أو مانصرفه من الجمل الانشائية وانما يبقى على وتيرة واحدة كما في هذه الآيات : ((ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في

البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون (١))) .

الجو هنا جو دليل يقدم ، ودعوة الى التأمل في أطراف الكون ، ولهذا ما أحتاج الاسلوب الى صخب وقوة ، والى موسيقى مفاجئة في تبدلاتها ، بل جرى هادئا يموج بالايقاع الرتيب ، ينتقل من آية الى آية ومن برهان الى برهان .

فالأسلوب التقريري يغلب في أدب الطبيعة القرآني ، ولكنه في اكثر مواقعه يصطبغ بالصبغة الحية ، من ايحاء وتصوير ، وموسيقى ناعمة آنا ، وصاخبة آنا آخر بحسب السياق الذي يتطلب ذلك .

والنوع الثاني في أدب الطبيعة هو الحوار ، وهو في الأدب ذو قيمة بارزة ، ذلك لأنه ينقل الينا نفسيات المتحاورين ، فاذا نحن أمام مظاهر نفسية ، وظلال انسانية متنوعة وكلما كثر الشخوص كثرت تلك السمات ، وازداد الأدب حياة .

ولنا في الشعر العربي أمثلة حية ، فالحوار عند عمر بن أبي ربيعة أكثر توفيقا منه عند أبي نواس في بعض خمرياته ، ذلك لأن عمر كثيرا ما يجعله صادرا عن صواحبه الكثيرات فتنتقل الينا نفسيا تهن ونوع تعلقهن به ، بينما يسوقه النواسي بينه وبين ساقية أو بينه وبين غلام ، أو بينه وبين الخمرة التي يشخصها ، فلا تشهد الا شخصيتين اثنتين . ولكن للحوار عناصر اخرى ، فليس الأمر متوقفا على تعدد الشخوص ، فهناك نوع الحديث الذي يدور بين المتحاورين ، والجو الذي يحيط بهم ، والصورة التي يبدون فيها ، والفكرة التي يبحثونها ، ويمر الحوار في القرآن الكريم في معرض القصص ، وفي معرض آخر ، وغالبا ما يحيط به جو مفعم بالحياة ، حافل بالظلال ، فاذا للحوار وظيفة يؤديها ، وعمل يقوم به .

ولعل سورة " الملك " لم تغب عن أذهاننا بعد ، حين رأينا النار التي تفور وتكاد تميز من الغيظ وتشهق شهقات تقطع أنفاس الكافرين ، وحين تصورنا أصحابها ترتعد فرائصهم أمام هول الحشر وجبروت جهنم ، أمهم الهاوية . . . في هذا الموقف المخيف يساق الحوار بين زبانية النار الساخرين الهازئين ، وبين البشر المعذبين المحترقين يقول الزبانية : ((الم يأتكم نذير ؟)) فيجيب الكافرون والحسرات تصّاعد من قلوبهم والنار تحرق اكبادهم : ((بلى !! قد جاءنا نذير فكذبنا ، وقلنا ما نزل الله من شيء)) فتقول الزبانية : ((ان انتم الا في ضلال كبير (٢))) . ثم يقول الكافرون : ((لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعير)) .

هذا الحوار يظلل الصورة بسمات نفسية انسانية ، قوامها الندم على مافات والاعتراف بالذنب والخطيئة ، كما انه يقدم للمسلمين في ذلك الوقت خدمة كبرى حين يرعب اعداءهم ومعذبيهم ، فالجواب كما نرى يصور واقع قريش ، وما هم فيه من طغيان وتكذيب وتمرد على الحق

(١) البقرة ١٦٥ .

(٢) يجوز البيضاوي ان تكون هذه العبارة

والفضيلة ،كما يصور كل معتد اثيم ، هماز مشاء بنميم .

واذا" فالحوار هنا بين عمليتين : أولاهما أدبية بحتة ، تتجلى فيما قدمت من وقعها الرائع في الجو الذى خلق لها وثانيتهما اجتماعية أو دينية لها دعوة تؤديها فهي تصور المشركين القرشيين في محاربتهم للاسلام وفي صدهم عن وفي تكذيبهم لرسوله الكريم . . . تصورهم في جهنم يتعذبون وتصدر عن السنتهم كلمات تبكيت وحسرة وندم على ماقدمت ايديهم الجانية .

آيات اخرى تظهر حوارا" ادبيا مصورا" بين نوح عليه السلام وأبنه الذى لم يتبع دعوته ويهيء له الجو الملائم فيصور الطوفان العظيم ويوشك الناس أن يغرقوا ونوح الذى يدرك نتيجة هذا الحدث الالهي تأخذه الرأفة بأبنه فيسعى اليه حثيثا ويهتف به أن يتبعه لينجو من الردى في الدنيا والعذاب في الآخرة ((وهي تجرى بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل ، يابني : اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال :سآوى الى جبل يعصمني من الماء . قال : لاعاصم اليوم من امر الله الا" من رحم (١))) .

الصورة الطبيعية هي هذا الطوفان الذى طغى حتى عاد موجه عاتيا كالجبال وتلك السفينة التي تعلوه وتحفظها عناية الله في مجراها ومرساها ويتخلل هذا كله حوار نفسي رائع فنوح والد يشفق على ولده من الموت فينادي به نداء تغمره الرحمة والحنان "يابني !! اركب معنا " لتنجو من موت مؤكد وتكون في عداد الناجين ، " ولا تكن من الكافرين " الذين ظلموا وكفروا بالله ثم ظلمهم الله بما ترى من البلاء العظيم . . . ثم نسمع صوت الولد المعتد المكابر : " سآوى الى جبل يعصمني من الماء " وهنا يتلهف نوح ـ عليه السلام " ويصل به الحنان الى النهاية فيقفه على الحقيقة وكأن قسمات وجهه تتلامح للقارىء أو السامع وهو يقول : " لاعاصم اليوم من أمر الله " .

أرأيت كيف أن الحوار موح وملىء بالنفسيات والعوالم الداخلية في الانسان فنحن هنا أمام أب يبصر ولده تأكله غوائل الردى وهو قادر على النجاة لو أتبع والده ولكنه في مكابرته وعناده يقذف بنفسه الى الموت ويترك أباه في لهفة الثاكل وحزنه (٢) .

ملا حظة أخرى توجد في الاسلوب القرآني من أدب الطبيعة ولعلها عامة في شتى أغراضه ، هي الالفاظ الجديدة التي تسلك في سياق التعابير فترى لها وقعا ظاهر الجدّة

(تتمة الهامش في الصفحة السابقة / : من كلام الزبانية بعد ان فسرها من كلام المعذبين (جـ ٢ / ٢٣١) أمّا الطبرصي فلا يذكر الا" انها من كلام الزبانيه (الجزء التاسع والعشرون ص ٩) .

(١) هود ٤٢ — ٤٣ .

(٢) انظر في هذه الرسالة التعليق على محاورة ابراهيم مع المشرك ومحاورة الهدهد مع سليمان والمؤمن مع الملحد وأصحاب الجنة وأصحاب النار .

لا تكاد تخفى في ذلك العقد الحافل لجمال الاحجار الكريمة والمرصّع بفرائد الدرر.

ولعل هذه الناحية هي التي كان العرب يقفون حيالها عاجزين عن تقليدها مكبرين اعجاز القرآن من جرائها ، فقد كانت تلفتهم الى نوع من الاختراع فتتراءى لهم اشعارهم التي بدأت تعاد تعابير صبت في قوالب من حديد ، فاذا سمعوا " يكوّر الليل على النهار " " والله محيط بالكافرين " . " مكر السيئات " . " مثوى المتكبرين " " دار المتقين " . " القارعة " . " الصاخة " . " فلا اقتحم العقبة " . " سوط عذاب " " هل أتاك حديث الغاشية " اذا سمعوا مثل هذه الالفاظ ومئات مثلها في القرآن نقلهم ذلك الى رحاب أدبية ظليلة وأدركوا أن صحراء شعرهم دون هذه الرياض الندية .

فالأسلوب الذى صيغ به أدب الطبيعة في القرآن اسلوب حي خالد ، يجمع الى تنوع الأداء جمال الموسيقى ، والى دقة التصوير جدة اللفظ ، والى روعة الخيال سحر البلاغة ، وفتنة التشخيص .

خاتمـــــــــــــــة

===

هذه الفصول التي مرت بنا تفسر لنا حيرة القدماء وبعض المحدثين في حقيقة القرآن الكريم ، فقد وقف العرب من قريش يتساءلون عن هذه الآيات التي يسمعونها من اتباع النبي وصحبه : أهي شعر من أشعارهم أم سجع من أسجاع كهان الجاهلية ؟

وهم حقيقون بهذه الحيرة لأن صدق الأصالة في نفوسهم ، وتمرسهم بفنون البلاغة ودقة نظرهم في وجوه الكلام كل ذلك جعلهم يرون في اسلوب القرآن مالا يراه غيرهم من الناس ، ذلك لأنه جمع كل عناصر الشعر الحقيقية ، وان تحطمت امامه القوافي والأوزان فهو مليء بالأخيلة الشعرية ، كما انه حافل بالعبارات الموسيقية التي تقوم مقام الوزن والعروض

وقد أخطأ القدماء الذين علّلوا تسمية العرب للنبي بشاعر ، بأن في القرآن كثيرا من الابيات الشعرية التامة ، والمصاريع المقطوعة ، لأن العرب لم يكونوا يفهمون الشعر الا قصائد أو مقطّعات ، تقال على نهج مرسوم ، وطريقة معروفة ، ولا أهمية لما يعدونه موزونا كالشعر في بعض الآيات مثل :

وجفان كالجــــــواب وقدور راســـــيات

ومثل :

من تزكى فانمـــــا يتزكى لنفســـــه

أو كالآية التي يضمنّها أبو نواس في قوله :

وقرا معلنا ليصدع قلبـــي والهوى يصدع الفؤاد السقيما

" أرأيت الذى يكذب بالديـــــن فذاك الذى يدعّ اليتيمـــا " (١)

قلت : لا يستطيع أحد أن يعد مثل هذه الآيات الموزونة شعرا " لأن ورود أمثالها في خطب العرب وأسجاع الكهّـان كثير ، ومع ذلك لم نسمع أحدا دعاها شعرا أو لقب أصحابها بالشعراء ، وكذلك ماعقده القاضي الباقلاني في " اعجاز القرآن " لرد هـــذه التهمة انما يقوم على الاستناد الى الاصطلاحات التي ظهرت في الاسـلام ، ولهذا كان فصله " في نفي الشعر عن القرآن " لا يقل ضعفا عن آراء المتهمين أنفسهم (٢) .

ولكن الالحاح الذى يطالعنا في القرآن الكريم نفسه في نفي الشعر عن النبي انما يرجع الى وجود خصائص شعرية غير الوزن والقافية اللذين هما شكلان خارجيان للشعـــر

ولعل فيما مـرّ من فصول هذه الرسالة اظهارا كافيا لتلك الخصائص .

ولقد اضطر الباحثون في الأعجاز من القدماء ان يردوا تهمة اخرى لعلها أكثـــر خطرا في زعمهم من الأولى ، هي اتهام القرآن بانه ضرب من السجع المعروف عند كهّـان العرب في الجاهلية (٣) . وهذه في الواقع أبعد غورا " من أن تكون دفاعا عن اسلـوب القرآن لذاته ، بل هي تثبت نبوة محمد وتدفع ماكان يقوله المشركون بأن كاهنا ما يلقّـن محمدا هذه الآيات .

---

(١) حذف ابو نواس لام البعد من " فذلك " ليخلص له الوزن . (٢) انظر صفحة ٨١ مـن كتاب الباقلاني . تحقيق الخفاجي . (٣) انظر الباقلاني صفحة ٨٩ .

ولكن اذا انكرنا ان يكون القرآن شعرا وأنكرنا ان يكون نثرا كالذى نعرف من النثر العربي فما هو اذا" .

اذا امعنا النظر في مقوّمات النثر الفني وجدنا في القرآن اشياء كثيرة منه ، واذا دققنا في خصائص الشعر وجدناه في معظم جوانبه مصاغا صياغة شعرية ، فهو يجمع مميزات هذا وذاك على السواء ، فلا هو نثر صرف ، ولا هو شعر صرف ، وانما هو قرآن .

وهذه التسمية الأخيرة للدكتور طه حسين في محاضرته عن النثر العربي في القرنين الثاني والثالث للهجرة (١) ، ولكنه يمر بها مرورا عابرا لا يفصّل فيها القول ولا يوضح فيها الغاية ، يقول : " ولكنكم تعلمون ان القرآن ليس نثرا كما انه ليس شعرا، انما هو قرآن ولا يمكن ان يسمى بغير هذا الاسم ، ليس شعرا — وهذا واضح — فهو لم يتقيد بقيود الشعر وليس نثرا لأنه مقيد بقيود خاصة به ، لا توجد في غيره وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة . فهو ليس شعرا ولا نثرا ولكنه ((كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)) فلسنا نستطيع أن نقول انه نثر كما نص هو على انه ليس شعرا (٢) .

تلك خاطرة تخطر بعد قراءة فصول كهذه الفصول ، ولا سيّما حينما نستشهد بشعر تظهر فيه الطبيعة " الرومانتيكية " أو " الكلاسيكية " وحينما نقرأ فصلا" خاصا لاستشفاف عناصر الطبيعة من خلال شعرنا الجاهلي ، ولكن لن تفوتنا خاطرة اخرى نختم بها هذه الرسالة ، خاطرة تتعلق بهذه المؤلفات الضخمة حول قرآننا المبارك ، منذ ان كان القوم يختلفون في القراءات بحسب امصارهم ولهجات قبائلهم الى ان توّجت بالكتب الحديثة المتميزة بالاطلاع على نظريات جديدة في الآداب والعلوم ، ونظرة سريعة الى ما أخرجت المطابع منذ طلع القرن العشرون تضعنا امام رصيد ضخم جدا من الكتب والابحاث ، ما تخلّف عنها أديب كبير كالعقاد ، ولا ناقد موهوب كسيد قطب ، ولا كاتب بليغ كالرافعي .

ونستطيع ان نقسم الابحاث الجديدة هذه الى ثلاثة اقسام : أدب ، وتفسير ، وعلم ، وهي جوانب القرآن الفسيحة التي يقف منها الباحث دهشا في كثير من المواضع ، إذ يرى فيها آفاقا علوّية لا يدركها العقل البشرى ، ولا يبلغ منتهاها السعي الانساني الضعيف ، فيعلن عجزه ، ويرمي عدته .

أمّا الكتب التي وضعت في القرآن لاظهار العبقرية الادبية ، فمنها ما يتّبع نهج القدماء كالباقلاني والجرجاني والرمّاني وأضرابهم ممن بحثوا في اعجاز القرآن على غرار ما نرى في كتاب مصطفى صادق الرافعي (٣) وان كان يعلّق على الناحية الموسيقية الصوتية آمالا" عراضا في تبيان الاعجاز البلاغي ، وهذا لم يبحثه القدماء الا" لماما .

وبعض هؤلاء كان متأثرا بالنظريات الأدبية الجديدة ، وحاول ان يطبق كثيرا

---

(١) القيت في قاعة الجمعية الجغرافية عام ١٩٣٠ . انظر كتابه من حديث الشعر والنثر دار المعارف ص ٢١ . (٢) كتابه السابق ص ٢٥ س .

(٣) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

منها على الأدب القرآني ، فوفق في مواضع وأخفق في أخرى ، ولكنه على كل حال استطاع ان يكشف جوانب قرآنية مشرقة لم ينتبه اليها القدماء ولم يشر اليها المتأثرون بهم ، وأول هؤلاء الاستاذ سيد قطب في كتبه الكثيرة عن القرآن (١) ، ثم الدكتور محمد احمد خلف الله (٢) ، ولكنه كان غالبا مايمزج الناحية العلمية بالعناصر الأدبية ، وهو في ذلك اكثر توفيقا من سيد قطب في كتابيه الأولين ، اذا تناسينا كثيرا من السقطات الفكرية في كتابه ، وتأويله النصوص وفق نظريته التي رسمها في بدء بحثه .

أمّا الذين تصدوا لتفسير القرآن فكانوا غالبا مايتركون نهج الطبرى وأبي حيان وابن كثير والزمخشرى من القدماء ، لينهج نهجا جديدا يتلاءم مع المقدرة العلمية الحديثة كما كان بعضهم يتحدث عن النظريات العلمية ويوفق بينها وبين معاني آيات القرآن على غرار مانرى في تفسيرات طنطاوى جوهرى ومصطفى المراغي ، ولعل اكثر هذه التفاسير توفيقا هو ((تفسير المنار)) للشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا ، فهو على سعته غزير المادة يمتزج فيه العلم والأدب ، كما انه مشبع بالروح الديني والفقه الاسلامي . حتى اذا وصلنا الى أولئك الذين تناولوه من الوجهة العلمية الصرفة فبحثوا في اسباب النزول والمكي والمدني وغير ذلك من علوم القرآن الكريم رأيناهم يستقون ابحاثهم من النيسابورى والسيوطي وغيرهم من قدمائنا وان كانت لهم شخصياتهم في ابحاثهم وآرائهم ولعل أول هؤلاء محمد عبد العظيم الزرقاني (٣) ، ثم يأتي بعده كثيرون كالاستاذ محمد عزت دروزه (٤) والاستاذ محمد صبيح (٥) ، واخيرا يطلع علينا الدكتور صبحي الصالح بكتابه القيم (٦) ، فيمتاز من أولئك ببحثه آراء المستشرقين وتفنيد بعض الزيغ والتعصب الذميمين فيها .

هذه الابحاث الكثيرة هي التي دفعتني الى اختيار موضوعي من أدب القرآن لا لأكون احد المساهمين في ابحاثه ، ثم كنت لا أتطاول أو اعــرّض نفسي لما لا أحسنه ، وانما لأشبع مافيّ من رغبة قائمة في الالحاح على قراءة القرآن ، ووضع بعض الملاحظات حوله حينما كنت أتلوه في اغلب الايام عند الصباح ، ولهذا كانت معظم افكار هذه الرسالة قديمة يرجع عهدها الى سنوات اربع الاّ انها مبعثرة لا يجمعها جامع أو فكرة .

ومن هنا كان المرجع العظيم لي هو القرآن وحده ولعلي ماكنت استعين بكتاب آخر الاّ لجلاء فكرة غامضة او تعبير يغلق عليّ ، وكثيرا ماكنت ارجع الى الذاكرة في بعض التعليقات على افكار الباحثين . ومهما يكن من شيء فاني اشكر للدكتور صبحي الصالح اشرافه على رسالتي واعانتي ببعض الملاحظات ، كما اشكر له عنايته وحسن رعايته والله ولي التوفيق .

محمد خير الحلواني

حلب ٢٠/٥/١٩٥٩

---

(١) التصوير الفني ، ومشاهد القيامة ، والظلال . (٢) الفن القصصي في القرآن .
(٣) في كتابه " مناهل العرفان في علوم القرآن " . (٤) في كتابه " القرآن المجيد " .
(٥) في كتابه " عن القرآن " . (٦) مباحث في علوم القرآن .

المصادر والمراجع

===

١ — تفسير البيضاوي	— ناصر الدين البيضاوي
٢ — تفسير المنار	— محمد رشيد رضا
٣ — مجمع البيان (٣٠ جزءا)	— الفضل بن الحسن الطبرسي
٤ — البرهان	— الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري
٥ — الاتقان في علوم القرآن	— جلال الدين السيوطي
٦ — دلائل الاعجاز	— عبد القاهر الجرجاني
٧ — اعجاز القرآن	— محمد بن الطيب الباقلاني
٨ — اعجاز القرآن	— مصطفى صادق الرافعي
٩ — مناهل العرفان في علوم القرآن	— محمد عبد العظيم الزرقاني
١٠ — مباحث في علوم القرآن	— الدكتور صبحي الصالح
١١ — القصص الفني في القرآن	— الدكتور محمد احمد خلف الله
١٢ — التوراة	— سفر التكوين
١٣ — التصوير الفني في القرآن	— سيد قطب
١٤ — مشاهد القيامة في القرآن	— = =
١٥ — شرح المعلقات العشر	— يحى بن علي التبريزي
١٦ — الرومانتيكية	— فان تيغم — ترجمة بهيج شعبان
١٧ — ادب الكاتب	— عبد الله بن مسلم بن قتيبة
١٨ — الشعر والشعراء	— = = = = = =
١٩ — العمدة	— ابن رشيق القيرواني
٢٠ — كتاب الصناعتين	— ابو هلال العسكري
٢١ — شعر الطبيعة في الادب العربي	— الدكتور سيد نوفل
٢٢ — الاسلام دين الفطرة والحرية	— الشيخ عبد العزيز جاويش
٢٣ — ابن الرومي حياته من شعره	— الاستاذ عباس محمود العقاد
٢٤ — من حديث الشعر والنثر	— الدكتور طه حسين

الفهـــــــــــرس

===

صـ

٢ — تمهيـــــــــــد :

٥ — الطبيعة والأدب :

أثر الطبيعة في الآداب — نظرية المحاكاة عند ارسطو — تأثر الكلاسيكيين بهـــــا — الطبيعة عند الرومانتيكين — ملامح الطبيعة في الشعر العربي — الأصالة عند الجاهليين التقليد عند الاسلاميين — عود الى الاصالة عند المتأثرين بنظريات الأدب الحديثـــة — رمز الغاب عند شعراء المهجر .

٩ — الطبيعة في الشعر الجاهلي :

أ — الطبيعة الصامتة : الطريق عند زهير والأعشى — السحاب عند امرئ القيس — الاطلال — ظلا لها النفسية — الاوصاف الحسية — تنوع الظلال عند كل من امرئ القيس وزهير .

ب — الطبيعة الحية : الناقة وارتباطها بوصف الثور الوحشي أو القطاة — الوصـــف النفسي عند الثور الوحشي في معلقتي لبيد والنابغة وقافيّة زهير — الناحيـــة الجزئية في اوصاف الطبيعة — الاندماج في الطبيعة عند الشعراء الصعاليك .

٢٣ — عناصر الطبيعة كما يعرضها القرآن :

السماوات والأرض — البر والبحر — الجنة والنار — الجبال — الحيوانات والطيور — عناصر اخرى — الروابط بين هذه العناصر .

٤٦ — ادب الطبيعة بين القرآن المكي والقرآن المدني :

أ — حول تقسيم القرآن الى مكي ومدني : نقض النظرية القديمة — آراء المستشرقين .

ب — هل ثمّـة اختلاف في ادب الطبيعة هنا وهناك : السور الأولى متميزة من غيرها — القرآن يتّبـع السياق وحده .

٥٨ — اغراض ادب الطبيعة في القرآن :

١ — للدلالة على الله وقدرته
٢ — للتشبيه والامثال
٣ — لتصوير مشاهد القيامة
٤ — للقضاء على عقائد قديمة
٥ — للقضاء على الشـــــر

٧١ — طريقة العـــــرض :

١" — الايجاز والاطنـــــاب
٢" — التصوير : الالفاظ الموحية . الصور المركبة
٣" — مراعاة الســــياق
٤" — الاسلوب : تقريري . حواري . جدة الالفاظ

٩٣ — خاتمـــــــة .